حجي جابر

مكتبة | 821
سُر مَن قرأ

رامبو الحبشي

رواية

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

دار طِباق للنشر والتوزيع

حي المقاطعة، مقابل وزارة الثقافة، رام الله - فلسطين

تلفاكس: 00970 2 2414808

بريد الكتروني: info@tibaq.ps

*

رامبو الحَبشي

حجي جابر

ترجمة نصوص آرتور رامبو من كتاب «الآثار الشعرية»: كاظم جهاد

*

الطبعة الأولى، ٢٠٢١

حقوق الطبع محفوظة

*

طبعة فلسطينية

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any from or by any means without the prior permission of the publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطّي مسبق من الناشر

الطبعة العربية من منشورات **تكوين**

الترقيم الدولي: ISBN 978_9950_402_35_5

إليكما..

تعلمان الذي جرى.. وكيف كانت ستبدو الأمور دونه!

أما وقد احتفظتما به كلّ هذا الوقت..

فقد آن الآوان الآن..

لنستريح جميعًا!

«نحـن لا نبحث عـن القطعة التي تركها رامبو من نفسـه في الحبشة، بل نبحث عمّا نتركه نحن من أنفسنا.. فأنت لا تذهـب لتـرى إن كان موجـودًا، بل لتشـعر بوجودك».

آلان بوريير

«كل النساء اللائي عرفنه متن اغتيالاً ...
لم يُطالب هو بأخريات
وعاودت النساء الظهور!»

آرتور رامبو (1854-1891)

يا للبؤس! الآن يقول: أعرف الأشياء

ويسير مغمض العينين، مصموم الأذنين

(١)

حين بدا وكأنه يراها للمرة الأولى.. أغلقت الباب!

انكفأت خطوات للوراء قبل أن تسارع للطابق الثاني -كمن تذكر شيئًا للتو- وتفتح نوافذه، حتى تلك التي صدئتْ مزاليجها لفرط ما ظلّت موصدة.

ما إن غمر الهواء المكانَ وخفّف من ثقل روائح شوالات الحبوب المتناثرة في الطابق السُفليّ، حتى هدأتْ قليلًا وبدأتْ تمنح انتباهها لأصوات الصبية في الخارج وهم يُحيطون بالعربة:

«عبد ربه.. عبد ربه».

كان الجسد نصف المعطوب يتمدّد على نقالة، فيما صاحبه يئنّ «الله كريم.. الله كريم»، وهو يُثبّتُ زنّاره، ويلوّح للهررين من حوله أنّه سيعود قريبًا، بينما خادمه يمسح بقماشة مبلّلة على جبينه، وهو يرفع رأسه خِلسة صوب النافذة، قبل أن يُخفضها مذعورًا.

وحدها كانتْ تشعر أنّ رحلته هذه المرة في اتجاه واحد.

ومع هذا لم تجرؤ على إطالة الفرجة عبر فتحات النافذة الخشبية. كانت تخشى أن تصطدم ثانية بتلك النظرة.

«كنتُ في انتظاره دائمًا، لكنني لم أعد أفعل. كففتُ عن تطويع كل أفعالي لمجرد جلب انتباهه. هكذا، ودون سابق عزم، فقدتُ الرغبة في أن يراني. لماذا؟ أعرف تمامًا لماذا، ولكن ألم أكن أعرف دائمًا ومنذ البداية؟ لماذا الآن إذن؟ ألأنه يرحل؟ أم لأنه كان راحلًا عني على الدوام؟ عني أنا تحديدًا، دون غيري، ممن لطالما شملهم بعطفه ورعايته وكرمه وابتساماته، في الوقت الذي لم أُعطَ فيه سوى التجهّم واللا مبالاة، كما لو أنّ الرب قد منحه للجميع سواي. لماذا الآن؟ أظنني تعبتُ أكثر مما انتصرتُ لنفسي».

ترفع عينين فارغتين للمرّة الأخيرة. نظرة أشبه بنظرة جندي سكتتْ من حوله فجأة أصوات القنابل والرصاص، ووسط أرض تحترق، خالية إلا من الجثث. بقي هو ينظر لكنه لا يرى، يتأمل الخراب ولا يعيه، يحاول استرجاع ما جرى ولا يقدر. إنه عالق الآن هنا، في هذه اللحظة التي لا يعرف فيها إن كان منتصرًا أم مهزومًا. غير مدرك حتى إن كان ميتًا أو على قيد الحياة. هكذا شعرتْ وهي تُلقي نظرة زائغة على موكب الرجل وهو يبتعد.

«جزء من حياتي يذهب هو الآخر. لستُ بعدُ في منطقة التمييز بين ما إذا كان هذا جزءها الأفضل أم الأسوأ، الأهمّ أم الأتفه، الأثمن أم الأبخس، الأكثر سعادة أم الأشدّ إيلاماً. غير أنني لستُ عاجزة عن الحكم على هذه السنوات وحسب، فلو

طُلب مني أن أستعير أوصافًا لحياتي، لن أجد، أن أحكم عليها؟ لن أعرف..

أن أُخرج هذه السنوات من كتلة حياتي لأحكم عليها، دون غيرها، يبدو أمرًا باعثًا على السخرية، ولكن ربما لأجل الأمل.. الأمل الذي صاحبها، الأمل بحياة جديدة، الأمل بشخص مجهول، الأمل في الحظّ. الأمل نعم، تلك البذرة السامّة التي قادتني في الأصل إلى هنا، وإلا ما الذي أتى بي؟ ما الذي جعلني أندفع بكامل طاقتي آملة في العلوّ، مثل ساق زهرة ترتفع بوجهها إلى السماء، غير عابئة بما يسقط منها، ولا بتلك الأرض التي مهما ارتفعتْ عنها ستظل جذورها مغروسة فيها. أردتُ نزع جلدي، والرجل الغريب كان أوضح دليل على هذه الإرادة. لو أني تشبّعتُ بالتفكّر في هذا الصليب الموشوم على جبيني، الذي رافقني في كل وقت وفوق كل أرض، لفهمتُ أنها رغبة مستحيلة وساذجة. من استطاع يومًا الخروج من جلده؟».

كانت العربة تواصل الابتعاد يُحاذيها الخادم ويطاردها الصبية، حين استرعتها خشخشة الأوراق التي بدأ الهواء يعبث بها.

خطتْ ببطء حتى استقرتْ قبالة الطاولة؛ الدواة والدفتر وقطعة القماش المتسخة، وكتب الحِرف اليدوية. لمحتْ مرآتها الصغيرة في الزاوية، على حالها الذي تركته، مشطورة من منتصفها إلى أجزاء كثيرة. تجاهلتْها وحسب. سحبتْ الكرسيّ. ترددتْ قليلًا قبل أن تجلس، وقد تسلّل إليها شعور غامض. لقد شعرتْ بالغربة

فجأة، كما لو كانت قد وصلت توًّا إلى هذا البيت، كأنّ يدًا قذفتْ بها إلى هنا مثلما يُقذف أيُّ شيء آخر، حتى أنها همّت لوهلة إلى التلفّت حولها، كأنما لتكتشف المكان الغريب، والذي بالعودة إلى الحقيقة كانت تحفظ أركانه وجدرانه وسلاله الدائرية الملوّنة الكثيرة عن ظهر قلب. فجأة تذكّرتْ أمها، بعد رحيل أبيها بسنوات قليلة، في تلك الليلة الشتوية المظلمة، عندما استيقظتْ على صوت نشيج في قلب الليل، وكأنها ليلة الرحيل الأولى. كانت تعرف سبب بكائها ولكن كمحاولة لتعزيتها حدثتها أنها على الأقل بين أهلها ولكن ماذا عنه، لا بدّ أنه غريب أينما حلّ. لن تنسى كيف ضمّت الأمّ قبضتها وضربتْ على صدرها بقوة، لا تلائم الصوت المبحوح وهو بالكاد يخرج:

«الغربة هنا.. هنا في القلب!».

كان الهواء ما يزال يعبث بالورق، فيما هي ساهمة في جلستها تلك. بدتْ عزلاء تمامًا في مواجهة أغراضه.

«إنها المرة الأولى التي أقابل فيها كل هذا الحشد وحدي. اعتدتُ طويلًا أن أراقبه من بعيد، جالسًا على هذا الكرسيّ، الذي أجلس عليه الآن، موليًا ظهره لي، يغمس قلمه في الدواة بيد، فيما تجوس الأخرى في الرأس الحليق. لطالما عرفتُ من ركني ذاك، متى يفرغ الحبر، كنتُ حتى أدخل في رهان مع نفسي: «الآن.. نعم الآن سيغمس القلم» وكنتُ أربح في كل مرة، إلى حدٍّ أحببت معه أن ألعب هذه اللعبة؛ فأتخيل أنني من يمنحه الأمر في كل مرة: اغمس

القلم الآن. وقد كان يفعل! أليس من البلاهة لو قلتُ إنني كنت أبتهج بذلك الربح الصغير؟ ولكنّ الغريب ليس في هذا، الغريب أن أقول الآن إنّ تلك البهجة التافهة، المفرغة من كل معنى سوى توهّمي، دفعتني لما هو أبعد، جعلتني أطمح لربح رهان أعلى: الآن سيراني.

لكنني لم أربح هذه قطّ!

قضيتُ الأيام أجرجر أثقال الهزيمة، حتى أشغلتني عن رؤية كل ما سواها، ورحت أستميت لأنتصر، ولو لمرة واحدة، مرة واحدة كانت ستكفيني!».

علتْ خشخشة الورق. وضعتْ يدها عليه فسكن. أمسكتْ بالقلم الخشبي وتفحصّته. مرّرتْ إصبعها على مقدمته المدبّبة التي سطّرتْ كلّ تلك الكلمات، لكنها في الأثناء كانتْ قد لكزتْ الدواة فاندلق حبرها على الطاولة الخشبية العتيقة. راقبتْ الحبر وهو يتبع الشقوق ويتفرّع ببطء في كل اتجاه.

لا تعرف لمَ شعرتْ أنّ كل شيء، وعلى خلاف ما يبدو، قد بدأ للتوّ.

مكتبة
t.me/t_pdf

سأمضي بعيدًا، بعيدًا جدًا، كمثل بوهيميّ
عبر الطبيعة- سعيدًا كما لو مع امرأة

(٢)

أصابتْ الحبشية فيما ذهبتْ إليه. ومع هذا فقد فاتها الكثير مما سيبين في حينه؛ فقد كانت قافلة آرتور رامبو في هذه الآونة تتجاوز سور جُغَل عبر بوابة النصر، وتتحضّر لتذرع الصحراء الدنكالية الممتدة نحو ميناء زيلع، حيث تربض سفينة بانتظار الإبحار صوب مرسيليا. ستة عشر هرريّ يحملون النقّالة المغطّاة بستارة من الجلد المدهون، تتبعهم الجِمال وهي تثير غبارًا كثيفًا يُظلّل الموكب ويمنحه جلالًا مهيبًا.

ألا تبدو هذه هي الجنازة الحقيقية للرجل، عوض تلك التي ستجري في شارلفيل بعد ستة أشهر من هذا المسير، حين تحتمي سيدتان من المطر بمظلة واسعة، وتتبعان في سكينة، عربة الموتى السوداء الفاخرة نحو مقابر العائلة؟

ماذا إذن عن إغراء حضور جنازته؟ ألا يبدو هذا الخاطر ملائمًا لمن قضى العمر لا يُشبه إلا نفسه؟ أم لأنه كذلك، كان يجب أن يُفوّتها، ثم يُخرج لسانه هازئًا في وجهها؟

لكنْ من كان سيقنع رامبو بالإنصات لهذه اللحظة الخاشعة، بدل الانشغال بحثّ الحمّالين المنهكين على تسريع خطاهم، وتهديدهم بحسم تالرات من أجورهم كلّما جنحوا للراحة قليلًا؟

أيُّ أمل هذا الذي يسكن رجلًا يرى جسده يتداعى، دون أن يمنعه ذلك من النظر إلى أيام بعيدة وهي تفي بأمنيات لا تنتهي؟ ألم يخطر بباله، ولو لبرهة، أنّ المشوار الطويل يُشارف على خاتمته، ويُنذر بالانتهاء؟

لكنْ من كان سيقنعه بفكرة النهاية أصلًا، وهو الذي اعتاد السير بلا هوادة حتى لو اضطرّه ذلك للمراوحة في مكانه؟ والكلام هنا ليس ضربًا من المجاز؛ فكثيرًا ما شوهد وهو يدور ساهمًا بين جدارين حتى إذا اهتدى إلى فكرته تباطأ وقرّ دون أن تتوقف قدماه عن الحركة.

هل انتبه الرجل في غمرة هذا المسير، إلى نبوءته القديمة وهي توشك تتحقّق، حين كان يهرب من البرد في بلاده، لأنّه إذا ما عاد إلى فرنسا في الشتاء، فسيموت لا محالة؟ هل خذلته ذاكرته، أم الأمل، أم عناده في وجه حياة عصيّة ما فتئتْ تُدير له ظهرها كلما أوغل يطلبها؟ أم تراه انتبه لكل ذلك، لكنّها الحيلة القديمة نفسها؛ فمتى ما كان ممكنًا أن تبدو الخسارة أقلّ فداحة، فليكن.

حين وصلتْ القافلة إلى أطراف أشجار كومبولشا توقّف جامي عن مرافقتها. كانت تلك إشارة أخرى فائتة. بدا أنّ رامبو يتساقط بمضيّ الوقت؛ القدم المتعفّنة، المدينة التي لعنها قبل أن يقع

في غرامها، ثم يعاود لعنها من جديد، والآن خادمه المقرّب، والذي ستأتي حكايته لاحقًا، حين أخذ يُلوّح بأسى حتى غاب سيده في المدى، ليعود باكيًا إلى هرر.

وفي هرر، كانت الحبشية على حالها؛ على الكرسيّ نفسه، تتفحّص قلم رامبو بمقدمته المدبّبة وترقب الحبر وقد بدأ يقطر على الأرض، ليحشد مسيرًا آخر هناك. خفتتْ أصوات الصبية في الخارج بعد أن تفرّقوا بين ملاحقة العربة، والانشغال بملهيات أخرى. لكنّ الضجيج انتقل إلى رأسها وأعادها لعشرة أعوام خلتْ.

«ضج السوق بورود قافلة تحمل أوروبيّ جديد. من مكاني رأيتُ عشرات الماشية يسوسها رعاة مسلحون ببنادق سان إيتيني المنتشرة في هرر، ودروع من جلد فرس النهر، والرجل، مثار اللغط والغمغمات التي بعثتْ نوعًا من التشويش علا الجوّ فجعله مستنفرًا، على حصانه مرتديًا قطعتين من الكتان الأبيض، يُطالع وجوه الأهالي، وهو يشدّ بيديه على زنّاره، ويكاد يلتصق بمترجمه من الذعر، خصوصا كلما مرّ بجواره أحد أفراد الحامية.

الغريب في الأمر ربما هو أنّ هذا المشهد لم يعطني شيئًا على الإطلاق. رؤيته للمرة الأولى لم تبعث فيّ شيئًا. على خلاف ما أسمع في حكايات أخرى عن بصيرة المشاعر، وحين تنطق النظرة الأولى في القلب بما سيأتي على إثرها. ذلك لم يحدث معي. المنظر بأكمله أثار بداخلي الضحك ليس أكثر. لا أعرف هل يعني الضحك شيئًا؟ لكنني بعد أشهر، في بيته، أعدتُ تمثيل المشهد متقمّصة فزعه

وتلفّته يمنة ويسرة في ذعر، ما جعله هو الآخر يغرق في الضحك. صوّرتُ له كيف بالغ في الخوف من الهرريين الذين لم يتبقَ لديهم آنذاك سوى قليل فضول، بعدما سبقه إليهم ثمانية أوروبيين، وفكّوا لحام مدينتهم المقدسة. عندما جرّبتُ تكرار الأمر، حين بدا لي بمثابة الذريعة والمفتاح لجلب اهتمامه، بدأ ضحكه يصبح أقلّ، حتى بات رويدًا يكتفي بالتبسّم، قبل التوقف عن الالتفات لي، فكففتُ بدوري عن حكايتي تلك تمامًا».

لو أراد رامبو أن يستعيد قصة فزعه، لما توقّف كثيرًا عند لحظة دخوله هرر، على أهميتها، إلا حين طالع الوجوه المختلفة لجنود الحامية. عدا ذلك فقد لازمه التوجّس طوال عبوره للصحراء الدنكالية، وهو لا يعرف من أين قد يأتيه الخطر؛ من القبائل الموالية لإيطاليا، أم من تلك التي تمدّها فرنسا بالسلاح نكاية في الإيطاليين، أم من المتعاطفين دينيًّا مع الأتراك وهم يشهدون انحسار وجودهم الإفريقي، أم من البريطانيين الذي يختبئون خلف الإيطاليين ليوقفوا الزحف الفرنسي، طمعًا في مزاحمتهم على الخيرات. لم يكن ليأمن قبيلة، وهو يرى كيف يمكن لفوهة بندقية أن تغيّر وجهتها بين الصباح والعشية. أمّا وقد عبر سور هرر وبلغ سوقها، فقد انقضى جلّ خوفه.

كان موكب رامبو قد مرّ من أمام الحبشية فبانتْ ملامح الرجل أكثر؛ شعر قصير أشيب، ووجه متيبّس كالمومياء، وعين قلقة لا تكاد تثبت على حال. هاج جمل لفرط ما آذاه الصبية، وكاد ينال من أحدهم بقائمته الخلفية، فنثر التراب الأحمر على بضاعتها المغسولة

توًّا، فيما نجتْ بضاعة جارتها التي تفطّنتْ أبكر وغطّتها بالقماش. قامتْ الحبشية تلعن الجمل، وهي تنوي قذفه بحجر، غير أنّ احتشاد الناس في المكان أعاق مهمتها. رجعتْ ساخطة تُعيد تثبيت حجابها، وتفكّ ألْحيَة الموز عن حِزم القات، وتغمس الأعواد المورقة في إناء الماء بالتناوب، قبل أن تُجفّفها بهزّها في الهواء، وتُعيد ربطها ورصّها على سجّادة من الخيش. التفتتْ فإذا الجارة كلثوم تُقاوم كتم ضحكة شامتة، قبل أن تنفجر حين بدا أنّ الحبشية انتبهتْ. حملتْ إناء الماء المتسخ، وتظاهرتْ برغبتها في سكبه على بضاعة جارتها، قبل أن تتوقّف بعد توسّلات كثيرة.

لا تكسب الكثير لوفرة المبذول من القات في السوق، ولأنّ زبونها، بدءًا من إمام الجامع الكبير وحتى لصّ البيض من أقنان الدجاج، بالغ التعنّت في إرضاء مزاجه؛ فلا يقبل تيبّسًا في الأعواد، ولا ميلًا عن اخضرار الأوراق. ومع هذا هي راضية بعملها، بل ومُحبّة له. فلا شيء يُرمى أو يبيت. ما زهد فيه الناس، تدّخره لليالي هرر الطويلة.

كل ذلك كان قبل أن تسرق من المدينة ليلها، وتشارك رامبو بيته.

«كانت لرامبو موهبة عجيبة في التآلف مع الناس وإشعارهم بالارتياح في حضرته كما لو كان يعرفهم منذ زمن بعيد أو أنه واحد منهم. لا يمكن نسيان أول يوم وقف فيه أمام بضاعتي، عما قاله لي، وكيف خرجتْ كلماته، بأيّ صوت وأيّ طريقة. لا يمكن نسيان

نظراته التي غالبًا لا تقول شيئًا، لكنها تمنح الطمأنينة، طمأنينة الشيء المألوف، كما لو أنّ عينه قد وقعتْ مسبقًا على كل شيء في هذه الحياة، كل شيء وكل أحد. لا أنسى ذلك لأنّه أبان لي كيف أنّ الأمل مهما كان صاحبه متفائلًا أو أخرقًا، لا يكون منبتًّا أبدًا. لا يأتي من اللاشيء، هنالك دومًا ما يؤسس له. هنالك من يأخذ البذرة بين إصبعيه ويدسّها في أرضك، بعلمك أو دون علمك، ليس مهمًّا، المهمّ هو ما أشعر به الآن إزاء تلك اللحظة.

كنتُ غضّة وصغيرة، أو أنا هكذا دائمًا. وحيدة وبوسع الآمال أن تقودني نحو الخطأ. كان من الطبيعي أن أنجرف مع أول إشارة لطف، وأيّ علامة استحسان. عندما قرر رامبو أن يقرّبني منه، خلتُ أنه اختارني لأكون قريبة منه. لماذا أنا إذن؟ غير أنّ الحقيقة المفزعة التي تبدو لي الآن، كانت أنّ الأمر حصل بالصدفة. تُعلّمك الحياة بعد وقت، أن تُعفي الأمور من تحميلها ما لم تحمله في الحقيقة، أن تكون أنت لا يعني أنّ أحدًا اختارك لسبب، قد يكون الأمر أنه كان عليه أن يختار فقط، وبالصدفة كنت أنت، تمامًا كما لو كان يمكن أن يكون غيرك. وكان لا بد للوافد الجديد من امرأة تؤنس وحدته ما أمكن، وهذا كل شيء!

من أين لفتاة هاربة من مصير نساء السهل المعروف والمحتوم أن تدرك ذلك في حينه؟ كيف لواحد أن يتخيّل كيف ننقذ صبانا وجمالنا وشغف أجسادنا هناك؟ كيف ننقذ أرواحنا من الذبول وقلوبنا من الانطفاء، بل كيف نُنقذ بطوننا من الجوع، وكرامتنا

من الانتهاك قبل ذلك؟ كيف يمكن للواحدة أن تتقي مصير أمها أو أختها والأخريات ولا تتحول إلى بهيمة معصوبة تدور حول ساقية، متخيلة أنها تمضي قُدمًا، والحقيقة أنها لا تراوح الدائرة التي رُبطت إليها بوثاق مشدود لا فكاك منه؟ بالهروب فقط، وأنا هربتُ لأحلامي، ولا ألوم نفسي، ولكن ألوم ألفة رامبو الزائدة أول الأمر. ألوم لُطفه حتى القليل منه. وألومه لأنه من حمل البذرة، وهو من جاء بها إلى أرضي، كيف لرجل مثله ألا يحسب عواقب ذلك؟ لكني أعود لأقول ولماذا سيفكر رجل مثله فيما ستشعر به بائعة قات وسط عشرات غيرها؟ لعلّه منحني ألفته، عن غير قصد، مثلما تآلف مع الهرريين جميعًا».

لم يساعد بدء توافد الأوروبيين على هرر في إزالة الجفوة تمامًا. لم يكونوا على يقين من قدرتهم على اجتياز السور دون ضرر، ولم تمنحهم المدينة ضمانة معلنة، فاحتفظ كل فريق بما يُكنّه من توجّس؛ الأهالي من جهة، ومن نجح في عبور السور من جهة ثانية..

لم تكن المدينة قد نسيتْ تمامًا كيف كان محرّمًا على غير المسلمين دخولها، قبل أن يذهب الاضطرار بتلك القداسة إلا من نفوس أهلها. وحتى هذا، لم يدم إلى الأبد.

هذا الاضطرار لم يكن إلا بسبب مينيلك الثاني، ملك شوا، حين ضيّق الخناق على المدينة بغية إخضاعها لسلطته المتنامية، وأخذ يضع العثرات في طُرق القوافل الوافدة إليها، حتى بدأتْ هرر تجوع وتمضي نحو هلاك محتوم، لولا لجوء أمرائها المتأخرين

إلى حيلة، حين تغاضوا عن دخول قوافل تضمّ أوروبيين يتظاهرون بإسلامهم، وهم يعلمون أنّ الملك الحبشي لن يتعرّض لرعايا من يمدّونه بالسلاح.

كان الهرريون ابتداء قد تعرّضوا لخديعة من أوروبيّ مهووس بعبور الحدود المحرّمة، حين تخفّى في زيّ تاجر عربي أسوة بما فعل في مكة، فدخل مدينتهم أخيرًا، بعد محاولات كثيرة فاشلة. لكنّهم هذه المرة أشاعوا نجاح المحاولات الجديدة، فتجاسر البقية على التجربة. ولما وصل الدور على تاسع الأوروبيين، كانتْ الأمور قد اتضحتْ تمامًا، ولم تعد المدينة حصنًا مقفلًا تمامًا. لكنّه، أي رامبو، لم يلتزم بحدوده كأوروبيّ، فمنذ اتخاذه الطابق الثاني من فرع شركة باردي منزلًا له، وجعل الطابق الأرضي مخزنًا لشوالات الحبوب، حتى اعتزل أقرانه الوافدين، وانخرط بين الأهالي؛ تخلّى عن مترجمه، وأخذ يلتقط الأمهرية من الشوارع كلمة كلمة، كما يفعل الحَمام مع الحَبّ المنثور، ويُضيفها إلى ما عنده، ثم يطوف بقاموسه المتنامي على الباعة والصبية والشحّاذين، يُمازح ويلاعب ويلاطف. لكنه سرعان ما ينكفئ متجهّمًا، إذا ما سمع نباح كلب في الجوار، أو أفسد الصغار راحته، فيخرج يطاردهم بالحجارة.

جرّب أكل أمعاء الخراف النيئة، بعد غمسها في الفلفل الأحمر المهروس مع الثوم، كما يفعل الهرريون. وهزّ أكتافه بحبور وهو يقفز، ليجاري الراقصين على أنغام الكرّار في دوائر متداخلة، وزاحم المناكب في حلقات الذِكر أيام المولد النبويّ، وجرّب مضغ القات بتلذّذ.. حينذاك كان لقاؤه الأول بالحبشية.

«كان يمشي بشكل خفيف، برأس مائلة تنظر إلى السماء، كمن يدندن أغنية وعلى فمه ابتسامة رضى صغيرة. كان يفكّر على الأرجح، غير أنه وبينما كان مارًّا بي توقف فجأة. عدّل من زنّار كان يحيط بوسطه، محاولًا التيّقن من ثباته، دون أن ينقطع عن الغناء. راح يطالع الأوراق الخضراء بفضول، ثم يرفع بصره لي. ظلّ وقتًا يراوح بيني وبينها حتى خرجتْ من بين شفاهي ابتسامة، عندها مدّ يده وتناول حزمة وقربها من أنفه. وحين تبدّى له جهله بها، توجه إليّ يسأل بالأمهرية عن اسمها. أخبرته عن اسم النبتة المقدسة، فأخذ يعيده ويتدرب على نطقه:

«قات.. قات».

أراد معرفة إن كانت تطبخ أم تؤكل نيئة. أعيته اللغة، فاستعاض بيديه. ضحكتُ رغمًا عني بينما أحاول عبثًا إفهامه نطقًا وإشارة أنها لا تؤكل من الأساس. كان يكرّر الكلمات خلفي بتركيز يفقده الإمساك بالمعنى. ولما يئستُ أشرتُ لتكوّر فم كلثوم الجالسة حذوي، ومن يجاورها والثالث والرابع.

أخذ يلتهم الأوراق متعجّلًا ملء فمه مأخوذًا بالرائحة العطرية، استمهلته.. فبدأ يمضغ على مهل ما أنتقيه له، فيما الناس من حولنا في ازدياد. لكنّ محاولاته في تكوير فمه ذهبتْ سدى وسط ضحكات الباعة ومن تجمّع بفضول.

ينتابني الضحك من جديد، كأنه حصل البارحة. كأنّ الأيام لم تمضِ وأنّ نهاية ذلك الضحك الكثير الذي ضحكته يومها ليس

بكاءً. كانت أمي تحذرني من الضحك الكثير. كانت إذا رأتني أضحك باستغراق تنهرني، ثم ترفع رأسها إلى السماء وتتذلّل إلى الرب أن يقينا شرّ هذا الضحك. لهذا ننشأ نخاف الضحك، نتوقع الحزن بعده، وعندما نحزن نقبل ذلك صاغرين لأنه جزاؤنا، فقد ضحكنا يومًا ما بغير حذر أو حساب. نضحك ونطلب من الرب المغفرة، ويومها أنا ضحكتُ كثيرًا، والربّ لم يغفر لي فيما يبدو.

عوض أن يمتصّ ماء الورقة المتفتّتة وحده، كان رامبو يبتلعها على غير إرادته في كل مرة. جرّبتْ كلثوم أن تُعينه، فوقعتْ عينه على سنّها الذهبي الذي يتقدّم فكّها البارز، قبل أن يختار أن يتجاهلها. وما إن كنتُ أنطق حتى يستجيب لي. لكنّ ذلك لم ينفعه، فغادر حانقًا يحمل حزمته. كان ذلك لقائي الأول به.

الذكريات تدور حولي كالأفاعي. عندما تتألم من أحد، يصعب عليك بعد ذلك التمييز بين ذكرياتك الجميلة عنه وذكرياتك السيئة. لا أعرف إن كان الجميع قد جرّب ذلك، تلتحم الذكريات عندئذ وتتكور، تتكثّف في منطقة واحدة لتصبح مبعثًا للهمّ فقط، بحلوها ومرّها. السعادة فيها تؤلمك والحزن يؤلمك. كيفما يكون الماضي، الجرح يلطّخ الذكريات بدمائه فلا يعود للسعادة فيها أثر.

يومها نسيتُ أن أنبّهه إلى ما ينتظره في الغد، وهو ما تحقّق؛ فقد جاء يشتكي من تقرّح في جانب من لثّته، وسط ضحكات شماتة مكتومة من كلثوم التي لم تنس تجاهله لها. لكنّ آلام فمه لم تمنعه من شراء حزمة أخرى، وقضاء النهار يتردّد عليّ، يسألني ويختبر

قدرته على تكوير فمه، حتى نجح أخيرًا، ففرح كمن أصاب مبلغًا عظيمًا. لن أنسى وجهه في تلك اللحظة، كما لن أنسى ذات الوجه في لحظات أخرى، عندما تتبدل الملامح في رمشة عين وتحلّ محلها ملامح أخرى.. لن أنسى».

غدا رامبو كثير التكرار على الحبشية؛ يغادر مخزنه ضحى، يعبر الأزقة نزولًا صوب الجامع الكبير الذي يتوسّط المدينة، يهرع إليه المساكين المتناثرون على العتبات الحجرية التي تُطوّق الجامع. يتوقّف باسمًا ويمنحهم. لكنّه مرات يضيق بهم ويسرّع خطواته، بل ويلعن من لا يكفّ منهم عن ملاحقته. يواصل سيره نزولًا حتى يصل السوق فيتوقّف يتملّى بإعجاب في السلال الدائرية الملوّنة، ويقاوم كي لا يشتري منها مجددًا، وقد امتلأ البيت بها. يعبر سوق الماشية وقد غطّى أنفه، ومنه إلى سوق الجلود، فالأواني، قبل أن يتوقّف قليلًا عند عجوز تبيع القهوة، ولا يكاد يمرّ بها سواه لفرط ما تستغرق وقتًا في كل حركة؛ غسل الحبوب، وتحميصها، ثم طحنها وإيداعها الإناء الفخاري الذي يتوسّط حفرة جمر نصف مشتعل. كلّ هذا ورامبو يجلس جوراها بصبر من لا مشاغل عنده، قبل أن تمدّ له بيدها المهتزة نافرة العروق فنجانًا يندلق بعضه قبل أن يتناوله، دون أن يُثير ذلك حنَق الرجل.

حين ينتهي من قهوته، ويختم أحاديث ودودة مع العجوز، يمنحها أضعاف أجرتها، فتترك كل شيء وتتجه للقبلة، ترفع يدها عاليًا وتتوسّل أن تصفو حياة عبد ربه. كان يستمتع برؤية ذلك

في البداية قبل أن يألفه فغدا يتركها في منتصف دعائها، غير آبه بمصير الدعوات. يدلف إلى سوق القات حيث الحبشية وصاحبتها تناكفان هذا وتشتمان ذاك. يجلس قبالتهما ليسأل عن بضاعة اليوم وهو يقلّب بيديه بضاعة الحبشية وحدها، ويتلذّذ برائحتها العطرية. تُبادر كلثوم للرد فتعود خائبة. فعلتْ هذا مرتين، فلما تيقّنتْ من سلوك الرجل أخذتْ تتعمّد تجاهله.

مع الوقت لم تعد الحبشية تنتقي له، صار متزمّتًا في اختيار حزمته، يمدّ يده لينتزع من الأسفل، حيث تُرصّ الحِزم الأجود أولًا. يمضغ على مهل كل ورقة وكأنها الأخيرة، ويُتبعها بالعود الرطب، ولا يغفل المناوبة بين فكّيه يومًا ويوم، بحيث لا يتقرّح جانب إلا وقد شُفي الآخر. لكنه وسط ذلك كلّه، حين سألها مرة عن اسمها، رأتْ في عينيه شيئًا يتجاوز أحاديث القات، فشعرتْ باضطراب في معدتها. التفتتْ إلى كلثوم، فوجدتها تُشيح ببصرها إلى الاتجاه الآخر، وهي تضع يدها على فمها تُخفي بسمة مرتبكة.

«ألماز».

أجابتْ وتشاغلتْ بتثبيت حجابها، ورشّ الحِزم بالماء، وهي ترمقه بنصف عين يهزّ رأسه وهو ينطق اسمها بما يُشبه الإعجاب، قبل أن يميل برقبته

يتبع شابًّا ممشوقًا ومجدول الشعر، بدا وكأنه يعرفه.

تسترجع ألماز كل ذلك باضطراب، فما كان مبعث بهجتها غدا نصلًا يوغل في الخاصرة كلما استدعته الذاكرة.

لا تعرف بالضبط متى بدأت الأشياء في التداعي. حين تستعيد أيامها معه يبدو الأمر وكأنه حدث دفعة واحدة، دون أن يترك لها فرصة لفعل شيء؛ التوقّف مثلًا، أو الهرب أو الاستغاثة في منتصف الطريق حتى.

ما لا تعلمه ألماز، ولعلها تعلم؛ أنّ كل شيء سار بالبطء اللازم لتفهم ما يجري على أحسن صورة، غير أنّها اختارتْ ألا تفعل. هل الأمل الكاذب هو ما ضللها؟ وماذا إذا كان خلاف ذلك؟ أي أنّ تغافلها عن الحال لم يكن بداعي الأمل، أي المستقبل، بقدر ما كان بداعي السابقة، أي الماضي. فما دامتْ قد جرتْ أمور جيدة، فلا مانع إذن أن تجري من جديد.

لكنّها، أي ألماز، امتلكتْ جسارة المضيّ، رغم الخسارات، حتى النهاية. هذا وحده أتاح لها أن ترى الكثير من الأشياء بوضوح، لكن بعد أن غدتْ خلفها، وفقد الأمر قيمته.

العالم سيرنّ مثل قيثار فخم
في ارتعاشات قبلة شاسعة
العالم للحبّ جائع: وستأتين لتُشبعيه

(٣)

كان قد جاء كيف أنّ جامي عاد باكيًا إلى هرر بعد وداع سيده لحظة بلوغ القافلة أشجار كومبولشا.

الحقيقة أنّه لم يعد إلى المدينة مطلقًا. فبعد أن كانتْ مقصده بالفعل، عدل عن ذلك آخر الأمر، ويمّم نحو وجهة مجهولة، ما إنّ تذكّر وجه ألماز في انتظاره هناك.

لهذا حين ستنزل إيزابيل في هرر، بعد أعوام من وفاة شقيقها، ستجهد عبثًا في البحث عن الخادم لتُعطيه نصيبه من تركة رامبو.

أما لماذا تفادى جامي لقاء ألماز وهو الذي ما وفد إلى المدينة إلا لحاقًا بها، فهذا يستلزم العودة إلى البدايات التي جمعتهما دون ترتيب مسبق. فكثيرًا ما كانت الفتاة تُمنّي النفس بأن تعبر سور جُغَل يومًا لتعود من سكّان المدينة، كما أجدادها الأقدمين، وهي التي ضاقتْ بمعيشها في السهل المقفر بين هضبتي هرر ودردوا، حيث آخر الحدود التي لا يحقّ لغير المسلمين اجتيازها.

كبرتْ تتشوّف لحظة انعتاقها، وترى في المغادرة خلاصًا تامًّا. حتى أنها اعتادتْ الوقوف على جانب الطريق، من لحظة ما بدأتْ القوافل تسلكه نحو هرر عوض آخر كثرتْ أخطاره، تُلوّح لها، وتتخيّل نفسها أميرة على هودج يُقلّها بتؤدة لبيتها العامر خلف السور. مأخوذة كانت بالحكايات عن السلال الملوّنة، والبيوت الجبسية الزرقاء والبيضاء، والشوارع المكنوسة التي تتحاذى صعودًا حتى تُطلّ أطرافها على المدينة، فيما نشأتْ هي في بيت من الخوص والقشّ، يكاد يتداعى لأهون ريح عابرة.

حين كانت أصغر، لم يكن الأمر مفهومًا لها، ووالدتها تشرح كيف أنهم بالأساس هرريون، قبل أن يُقام السور ليقذف بسلالتهم خارجها، حتى يصفو المكان لمن بقيَ ويتطهّر من الدنس. كثيرًا ما سمعتْ الأمَّ تتهكّم حين يُعييها التبيان، بأنّ هرر مدينة مقدّسة دون مقدسات، وأنّ على أهلها الذين يدعون نسبًا عربيًّا أن يُغادروا إلى حيث أجدادهم إذا أصرّوا على ذلك. لذا ما إن وعتْ ألماز، حتى غدتْ ترقب لحظة استردادها لحقّ ضائع، أكثر منه محض رغبة بتبديل حياتها البائسة.

جامي، كان قد قدِم مع أمّه صبيًّا إلى أطراف السور، حذو عائلات أخرى، توالى توافدها على المكان في مدد متفاوتة، وجاهد سدى كي يقبله الصبية بينهم. كان يظنّ أول الأمر أنهم يغارون منه، حين انتبه كيف تتهامس الفتيات عن وسامته، قبل أن يُدرك أنّ الأهالي هنا، وأبناءهم من بعدهم، وبقدر انتظار العبور للداخل،

حريصون ألا يأتي ذلك وقد شابهم خلطٌ آخر. حتى أنهم أصبحوا يُطلقون على الوافدين الجدد اسم الأشتات، ويُنشّؤون الصغار على ذلك. وحدها ألماز التي تكبره بعامين، كانت تُخالف كلّ ذلك، تجلس جواره في خيمة الدرس، وتلهو معه بعدها، وتسمع شكواه، على غير رغبة من أمها. حتى تعلّق الصبيّ بها، واحتفظ بذلك إلى الفتوّة والشباب. لم يلتفت لسواها، حتى بعد أنّ خفّ شعوره بالنبذ، مع كثرة الوافدين.

وكان أن بدأتْ فتيات في طلب ودّه تحت سطوة سمرته الصافية وقوامه المشدود، بينهنّ فتاة تفوق ألماز جمالًا، لكن دون أن يمنعها ذلك من حمل غيرة قاتلة تجاهها. قدمتْ بعد جامي بأعوام، وتعلّقتْ به ما إن رأته، وظلّت تطارده بدأب كما يفعل هو مع محبوبته. ولم تكفّ تتساءل عما يُعجب الشاب في فتاة نحيلة، بجسد مسطّح وملامح ثعلبية. كانت تفعل ذلك خلسة دون قدرة على مواجهة ألماز التي تتحاشى الفتيات إغضابها، إما محبة أو خشية جرأتها في المواجهة.

لكنّ كلّ ذلك لم يذهب به بعيدًا، فلم تكن ألماز قادرة على رؤيته أكثر مما فعلتْ أول مرة؛ رفيق تُمضّي معه أوقات انتظارها في السهل. كان الوحيد الذي يُضاهي نبوغها الدراسي، خاصة في حفظ القصائد بالأمهرية، دون أن يمنحه ذلك عندها مرتبة أعلى من التي نالها. بدأ ييأس من قدرته على الظفر بها، لولا قليل تعويل على الوقت ودأبه في ملاحقتها. ظلّ على حاله تلك معلّقًا بين خوف

ورجاء، حتى جاءته يومًا تُسرّ إليه بما عزمتْ عليه، وتهدّ كل الآمال على رأسه مرة واحدة.

كان صبر ألماز قد بلغ منتهاه، وبدأتْ تهجس بانقضاء العمر ولما يتحقّق مرادها. وحين استجمعتْ جسارتها وضربتْ موعدًا لمفارقة أطراف السور إلى هرر، عزّ عليها أن تفعل ذلك دون أن تُخبر رفيقها.

ما ظنّتها مَهمة يسيرة غدتْ خلاف ذلك؛ إذ ما إن أخبرتْ جامي برغبتها في الالتحاق بقافلة الفجر، حتى اضطرب وهاج وأخذ يغرس المحاذير في مسيرها حتى قبل أن يبدأ. لم تألفْ ذلك منه، ومع هذا فقد سعتْ لتهوين مخاوفه. أخبرته كيف أنها ستندسّ دون أن يلحظها أحد، وإذا ما قُدّر أن ينكشف أمرها، فلن تجد حينها غضاضة في أن تعمل في الخدمة لدى أيّ بيت حتى يتغيّر الحال. لم يكن أمامها غير ذلك، وهي التي يعلو جبينها عند مفرق الشعر، إلى جانب رسغها الصليب وشمًا أخضر، بحيث يصعب أن تتظاهر بكونها مسلمة. هذا الأمر يتقاسمه معها كل أبناء القبيلة المطرودين من هرر، ويتوارثونه عن عمد، في انتظار أن يعودوا إلى المدينة دون استجداء الحيلة. خاصة حين رأوا كيف أنّ من أسلم منهم بالفعل، لم تغفر له هرر ماضيه تمامًا، وظلّ على دونيته عندهم.

حين بدا وكأنها سدّتْ أمام جامي كل الذرائع، احتضنته مودّعة وهمّتْ بالمغادرة. عرفتْ أنه لن يحير جوابًا وهو يعلم أنّ السانحة الوحيدة للبقاء في هرر من غير ديانة أهلها تتأتى عبر خدمة النساء

في البيوت، وأنّه لولا استنكاف أهالي أطراف السور لما بقيت منهم امرأة خارجه. سمعتْه يغمغم بكلمات غير مفهومة، قابلتها بابتسامة مرتبكة ومضتْ. ما لم يأتِ عليه الاثنان تحرّجًا، أنّ هذا لا يشمل جامي وأمّه، ولا بقية الأشتات، لأنّ الوشم الذي يعلو جبينهم يظهرهم من طبقة لا يُقبل بها حتى في خدمة البيوت.

بقي الشابّ ساهمًا في الأرض دون حراك. يُصوّب بصره في الموطئ الذي كانتْ تقف فيه ألماز قبل أن تُغادر. اختلطتْ عليه المشاعر؛ غضِب ثم حزِن، قبل أن يفكّر باللحاق بها واستعطافها بالبوح بمكنون نفسه علّها تعدل عن قرارها، لكنّ الفتاة كانت أسرع مضيًّا، فاستقرّ لديه شعور بالخيانة.

ليس معلومًا إن كان جامي قد تنبّه في تلك اللحظة على وجه التعيين، أنّ ألماز قد لا تكون العشيقة المنشودة وحسب، بقدر ما كانتْ الجدار الذي اعتاد أن يستند عليه وحيدًا، وأنّ رحيلها قد يُعيده أعزلًا من جديد. ليس معلومًا ذلك، لأنّ أفعاله التي تلتْ لقاءهما هذا لا تُتيح الجزم بشأنها؛ فالعشق، والخوف، ورغبة الاستئثار، وحتى الكراهية المحضة، نعم الكراهية، قد تُشبه بعضها من حيث المآلات.

ارتدّ العاشق، أو الخائف، أو الراغب في الاستئثار، أو الكاره، إلى أمّ الفتاة يُخبرها بنوايا ابنتها. فعل ذلك بكل ما يستطيع من عزم، رغم نظرات الاحتقار والتشكيك التي قابلته بها الأم. لم يُرد حينها إلا إيقاف ألماز عن الرحيل، غير مبالٍ بغضبها. كان أهون عليه أن

تُفارق صحبته ناقمة، ولا أن تُغادر أطراف السور. هل يجدر هنا أن ترد فكرة الحسد -كاحتمال- لتُضمّ إلى البقية لا لتنفرد بالتفسير؟

ومع هذا فقد خاب مسعى جامي، فنال حنق الفتاة، دون أن يمنعها المغادرة. إذ ما إن علمتْ الأم، وهي التي كانت تخشى قدوم هذا اليوم، حتى تصدّت لابنتها بكل حزم، وهي تُذكرّها بالعار الذي سيلحقها إن هي ارتضتْ أن تتسلّل ذليلة. لكنّها وجدتْ ألماز تُقابلها بضحكة ساخرة، وهي تسأل من غير اكتراث عن المخبول الذي دفع بها لهذه الفكرة البعيدة. صمتتْ الأم قليلًا، وقد اهتزّ يقينها. تفحّصت وجه ابنتها وهي لا تدري أتركن إلى ما تراه، أم ما تعرفه عن عناد الفتاة وقوة عزمها.

كثيرًا ما جئنها النسوة يشتكين ابنتها والطريقة التي تتحدى بها الكبار في حديثها، والرجال خصوصًا. كانت الأم تبتهج بذلك على خلاف ما تُظهر لهنّ، لكنْ دون أن يمنعها ذلك من عتاب الفتاة على مرأى الشهود. لم يخطر ببال الأم أنّ ما يحرّك ألماز هو علوها على السهل وأهله لفرط تعلّقها بهرر، بحيث ملأها الاستغناء ولم تعد ترى في المكان ما يُخلّف رهبة أو رغبة مهما جرى.

حين زادتْ حيرة الأم، غادرتْ وهي تتوّعد ابنتها بغضب لا يبرد إن كانت تستغفلها.

لا تعرف ألماز كيف ابتلعتْ صدمتها ولجمتْ غضبًا واضطرابًا كانا سيعلوان محياها ويكشفان أمرها. لا تعرف كيف تجاسرتْ على ألم معدتها الذي إن ظهر ستدرك الأم أنّ ابنتها تُخفي الحقيقة.

لم تنم الأم ليلتها تلك، فلم تجد الفتاة بدًّا من تفويت القافلة وقد تعالتْ نقمتها، حتى إذا مرّت قافلتان بعدها، وركن الجميع إلى انصراف الخاطر تمامًا، كانت ألماز تتسلّل ليلًا مع أخرى جديدة، وتتجاوز فجرًا سور جُغل من بوابة بدر، مستغلة تراخي الحراسة مع دخول وقت الصلاة.

لم يُفارقها الخوف والتحفّز طوال الطريق. خطر لها المصير الذي ينتظرها في حال انكشف أمرها قبل الوصول. اهتزّ يقينها بجدوى ما عزمتْ عليه. اغتمّتْ أكثر حين طرأ على بالها وهي تصعد رفقة القافلة صوب هرر، ما تركته خلفها؛ الأم التي سيأكلها الحزن لا محالة، رفاق الصبا، وحتى جامي بكل لؤمه الذي لم يُخفّفه اعترافه الأخير المربك. اضطربتْ أكثر، فكّرتْ في التخلّف عن القافلة، والعودة إلى أمانها في السهل. لوهلة بدا كل الذي هربتْ منه شديد الحنوّ عليها دون أن تكون قد رأتْ ذلك إلا هذه اللحظة. كادتْ تفعل لولا بلوغها بوابة المدينة، فعرفتْ أنّ مصيرها يُطوّقها بلا فكاك، وما عليها إلا ملاقاته أيًّا تكن النتيجة.

«أنا وافدة إلى هذه المدينة ولست منها ولا من أهلها. قد تكون السنوات التي عشتها في هرر أهم ما عشته، لكنّ ذلك لا يمنع أنني قبلها كنت أعيش أيضًا. هذا ما أدركته متأخرًا. كانت لي حياة، أشدّ بساطة نعم، أقلّ أهمية وخالية من الأحداث هذا صحيح، ولكنها حياتي، لا يمكنني التبرؤ منها، حتى أني أحبها، يبدو غريبًا؟ أجل أحبها كثيرًا، ألم تكن فيها أمي؟

عشت طيلة حياتي هناك في السهل أترقّب اليوم الذي أغادره وأعبر إلى هرر. كنت وأمي نعيش وحيدتين، غادرنا أبي إلى وجهة لا نعلمها. الرجال يغادرون دائمًا، لكنّ ذلك لم يعد مهمًّا. تعودتُ على الأمر مع مرور الوقت، رغم أنّ أمي لم تتعوّد قط، تحاول التظاهر بالقوة أمام الآخرين وأمامي، لكنها إذا انفردتْ بنفسها، تبكي بحرقة، وأنا أراها وأتظاهر أني لم أرها. تحمل ألمًا كبيرًا في قلبها يثقلها، وأنا أضفت إليه ألمًا آخر أكبر. تتوزعني المشاعر، بين الشعور بالذنب تجاهها ورغبتي في التحرر من قيد حياة السهل المقيتة والبحث عن مصير آخر أفضل. لا أعرف إن كنتُ محقة في مطلبي هذا إذا كان ثمنه ترك أمي، ولكني تركتها في نهاية الأمر. لم يكن من اليسير فعل ذلك؛ ففي طريق الهروب انتابني شعور قويّ بالتراجع، صحيح أنّ هذا الشعور كان يخالطه كثير من الخوف من أن يُكتشف أمري، ولكني كنت حزينة بالأساس لأني أخون والدتي، لم يكن لديها في الحياة غيري، وأنا تخليتُ عنها. الآن أفهم جيدًا معنى أن يتخلى عنك شخص تحبه. بقيتُ طيلة الوقت وعلى مرّ السنوات لا أتذكرها إلاّ وأشعر بقلبي يتقطّع، ينفصل إلى قطعتين. هذا صعب، أعجز عن وصفه. واستفحل الآن لأني في النهاية لم أحصّل شيئًا سوى الخيبة. كل ما جنيته هو مزيد من الألم ووجع القلب، بل والإحساس بالخزي أيضًا. من أجل ماذا يخون الإنسان والدته؟ هل كان ثمة ما يستحق؟ يا له من شعور مهين بالعار. العار يداخلني حتى وأنا أسترجع تلك اللحظات، كأني أخرج الكلمات من الوحل وأقولها. ليس من الصواب أبدًا التخلي عن شخص

يحبك مقابل ربح قلوب لن تحبك. ليس على الواحد أن يبكي على شيء لن يعرف كيف يبكي عليه. لا هرر عرفتْ ولا سكانها ولا رامبو رغم ألفتهم جميعًا في البداية. رغم إحساسي الأول بأنّ هرر مكاني، وأنّ سكانها أهلي، وأنّ الأوروبيّ يختارني وسيفتح أمامي أبواب السعادة. كل ذلك كان مجرد قشرة خارجية تغطي حقيقة أني سأظل أبدًا غريبة، منبتة وأقلّ من أن أُعطى الحب. الآن أرى هذا كله، وأتساءل عن كل الذي عاشته أمي المسكينة».

لكن هل كان كلّ ذلك سيختلف عند ألماز لو اختلف المآل مع رامبو؟ المدينة والناس وحتى الأم؟ ألا يرتدّ الواحد إلى الأشياء التي تركها عمدًا، حين يفقد أخرى رغم إرادته، كان يرتجيها بشدّة؟ هل تُبصر الفتاة كيف تتبدّل الغايات ما إن يضع القدر الواحد في مواجهة طرق مسدودة؟

حين عبرتْ القافلة السور، تبدّدتْ كل المخاوف، وألماز توغل في هرر مع طلوع الصباح، وتراها تتفتّح أمامها على مهل. تكاد تبكي والألفة تملأ روحها. مأخوذة بالبيوت البيضاء والزرقاء المتراصّة، وهي تتوالى صعودًا إثر بعضها حتى تكاد تلامس السماء. تشعر بها تعرفها، بيتًا بيتًا، تعرف ناسها، والمارّين بينها. تعرف هذه السلال الدائرية الملوّنة وهي تخطف الأبصار من بعيد.

الآن أيقنتْ أنّ هرر مكانها الذي عادتْ إليه، وطنها المؤجل وقد آن تحقّقه. فارقتْ قافلتها عند السوق، أحكمتْ غطاء رأسها والمنديل على رسغها، وأخذتْ تجوس كالعارف أزقة المدينة. تُحيّي

النساء بعباياتهنّ الملونة، تبتسم لهنّ كجارة قديمة، فيردنّ التحية بأحسن. لفتتها الأضرحة بقبابها الخضراء، ونقوشها المحفورة، والزوايا يضوع منها البخور وروائح البنّ المحمّص، ويصدر عنها ما يُشبه الطنين لفرط انخراط الزوّار في أدعية جماعية. عاودتْ إحكام غطاء رأسها كي لا يظهر وشم الصليب، ما إن لمحتْ جنديًا بغير ملامح أهل المدينة. عبرتْ حشود المؤمنين بعزيمة من يعرف وجهته، قبل أن تلحظ رجلًا يكاد يتوقّف وهو يُطالعها بما بدا أنّها غلظة. توقفتْ تتحرّى الأمر، فتوقّف هو بدوره وبانتْ نظراته بما يقطع أيّ شكّ. ابتسمتْ بارتباك، وعاودتْ السير بسرعة هذه المرة. خفّف الرجل من جموحها، وأعادها إلى الأرض ثانية بعد أن كانتْ تُحلّق بسعادة. خشيتْ أن يكون فضح أمرها، أن يكون عرفها أو رأى ما يجعله يظنّ أنها وافدة من السهل. تفقدتْ المنديل على الرأس والرسغ. لم تجد سببًا لنظراته، دون أن يُفارقها القلق الذي زرعته داخلها. طوال أعوام سيظلّ الرجل لغزًا عصيًا على ألماز. علمتْ أنه مؤذن الجامع الكبير، لكنها لم تستطع أن تسأله عن سرّ غلظته. اختارتْ تجنّب المواجهة وبقاء حيرتها على احتمالية كشف أمرها. حينها انتبهتْ أنّ جرأتنا لا يجدر أخذها في الاعتبار إلا حين يطرأ ما يمكن خسارته. عدا ذلك فالناس سواء في الشجاعة.

لم تستطع نسيان إرباك مؤذن الجامع إلا بإرباك آخر، حين التقتْ صاحبتها كلثوم. على خلاف النسوة اللواتي انشغلنّ في النهاية بوجهتهنّ رغم كل الملامح الباسمة، توقّفتْ قبالتها فتاة في مثل عمرها، بملامح وجه طفولية، وسنّ ذهبي في مقدم فكّها

البارز. ترتدي جلبابًا أخضر بأكمام واسعة، ومنديل رأس أصفر، ولا تكفّ أساورها العاجية تُصدر صوتًا مع حركة يدها الكثيرة:

«أنت جديدة هنا؟».

لم تتبيّن ألماز نبرة الفتاة إن كانت تسأل أم تتعجّب أم تعترض. بدا أنّ هرر يُمكن أن تُباغتها بأيّ شيء، من الغلظة قبل حين، دون أن تدري ما الذي يمكن أن تحمله الفتاة ذات الأساور العاجية أيضًا.

لم تُجب ألماز بل ظلّتْ تُحدّق في الفتاة، والتي بدروها اعتلتْ ملامحها نظرة فضول مع بعض التشكّك، قبل أن تُعيد سؤالها وتُردفه بسؤال آخر:

«ألا تتحدثين لغتنا؟».

هذه المرة بانتْ النبرة تمامًا. كان سؤالًا لكن دون براءة الرغبة في المعرفة وحسب. بدا أنّ الفتاة تسأل وتتعجّب وتعترض في آن معًا. خشيتْ ألماز أن تكون قد سحبتها إلى حيث مخاوفها من حيث أرادتْ إبعادها.

اندلقتْ تُجيب، ليس على السؤال وحده، بل وتنسج حكاية حول ما ظنّته إجابة على سؤال آتٍ لا محالة. شرعتْ تُخبرها كيف قدمتْ من بلاد بعيدة لتنعم بحياة هرر المحافظة. اجتهدتْ كي تبدو حكايتها متماسكة، وهي ترقبُ أثر الكلام على محيّا الفتاة الذي ينبسط أحيانًا قبل أن يُعاود الانقباض، فلم تدرِ ألماز إن كانتْ في

طريقها للنجاة أم أنّ أمر طردها يقترب باطراد. حين انتهتْ صمتتْ تنتظر ما يُشبه الحكم. ظلّتْ الفتاة صامتة هي الأخرى؛ فزاد ذلك من الإرباك وأطلق ألم المعدة، قبل أن تنفجر ضاحكة وهي تتساءل إن كان الجميع في المكان الذي قدمتْ منه يُثرثرون مثلها.

أخذتها كلثوم من يدها لتُريها هرر، رغم محاولات ألماز التملّص من البقاء معها أكثر، قبل أن تألف رفقتها مع الوقت، وقد تبدّى لها كيف تتصرّف على سجيّة بريئة. كانت الفتاة تتحدّث دون توقّف، وهي تُشير بيدها إلى الأماكن والناس ورجال الحامية المصرية، فيزداد صخب الأساور العاجية. خطر ببال ألماز أن تُعلّق هي بدورها على ثرثرة كلثوم الممتدة لكنها آثرتْ العدول. بدا ذلك جيدًا لأنّ الفتاة صمتتْ فجأة وكأنها تذكّرتْ شيئًا، قبل أن تسأل:

«أنتِ بحاجة للعمل.. صحيح؟».

حرفتْ كلثوم وجهتها سريعًا صوب مزرعة للقات أوقفتها لصالح متعبدي الجامع الكبير سيدتها أمّ الخير، والتي ستصبح منذ هذه اللحظة سيدة ألماز أيضًا.

الآن يمكن القول إنّ الفتاة الهاربة من السهل إلى حلمها في هرر، كانتْ بالفعل تعرف وجهتها؛ فاليقين الذي وقر قلبها لم يترك النهار ينتهي إلا وقد منحها عملًا ومبيتًا إلى جوار صاحبتها الجديدة. وبعد أعوام من هذا اليوم ستحكي لرامبو وهي تضحك، كيف انتهى بها المطاف بائعة للقات. وكيف قادها ذلك اليقين لتتعثّر بكلثوم، ومن بعدها أمّ الخير التي ما إن رأتها حتى بدأت تتمعّنُ في وجهها

بريبة، قبل أن تفترّ عن ابتسامة طمأنينة وهي تُثني على ملامحها التي يَطفر منها الإيمان، وتُبدي إعجابًا باسمها الذي يُحيل إلى كون المرأة جوهرة ينبغي صونها على الدوام، وسط ابتهاج كلثوم التي أخذتْ تُصفّق وتثير ضوضاء بأساورها.

كادتْ تُخبر رامبو كيف حمدتْ الرب أنها لم تركن إلى سذاجة كلثوم فتُخبرها أنها قادمة من السهل، إذ سرعان ما سمعتها تقول حين بلغتْ في شرحها سور جُغل، أنّ وراءه أناس من طينة قذرة لا يكفّون يدعون أنهم مشابهون لأسيادهم في هرر، وهم يعلمون أنّ الهرريين أحفاد الصحابة، على خلاف الأنجاس.

كادت تخبره كيف كان أكبر همّها ما إن بدأتْ العمل، ألا ينحسر غطاء رأسها عن الوشم، وهي تنقل الحِزم الخضراء كل يوم لتنثرها في أرجاء الجامع، بعد أن تكون قد توضأتْ، مع حرص ألا يبين ما يُخبئه الغطاء أو منديل الرسغ، وخلعتْ حذاءها على مدخل الجامع لتمدّ بالقات العبّاد والنساء كتبة القرآن. وكيف أنها لم تحتج لتغيير اسمها الذي تتلاقى فيه الديانات الثلاث في الحبشة. لكنّ معاناتها لم تمّحي تمامًا في البداية، وهي تجاور كلثوم في السكن، ما جعلها تُنزل غرّة شعرها بحيث يستر جبينها خشية أن ترى الفتاة مفرق الشعر حين يختليان وحدهما. هذا الأمر انتهى حين انتبهتْ بعد ذلك أنّ الهرريات يُبقين حجابهنّ في وجود أيّ غريب، رجلًا كان أم امرأة.

كادتْ تبوح له بهذا الجانب من حكايتها، لكنها أحجمتْ. كان شيء فيها، رغم كل تلك الأعوام، لا يزال يحرس سرّها ويُخبّئه بعيدًا

عن كل عين. تنوي إخباره، لكنّها ترى الوقت مبكرًا على ذلك. لذا أخذتْ تحكي له عوض ذلك، كيف بدا غريبًا وقتها، ما للقات من قداسة لمتناوليه، فيما يُقابَل العمل في حقوله التي تُزهر طوال العام بالاستنكاف. كيف تبدو النبتة جالبة للازدراء وهي تُقطف، فيما يتعاظم قدرها حين تصل لوجهتها الأخيرة، وهو ما ساعدها على إيجاد العمل دون عناء في نهاية الأمر.

في يوم آخر، خطَر لألماز أن تُعيد على مسامعه ثانية حكايتها مع القات، وتتوسّع فيما جرى، وربما تحكي قصة الوشم إذ اطمأنتْ لذلك، لكنها عدلتْ، رغم كل الإغراء الذي مثّله إنصاته الممتد في المرة الأولى، حين كان يستمع لها بكليّته، لا يكاد يلتفت وهي تحكي، وهو أمر ظلّتْ على الدوام تُجلّه فيه. ومع هذا فقد بدأتْ تنتبه مبكرًا أيضًا، أنّ رامبو يفعل ذلك في المرة الأولى وحسب، وأنه عادة يستخدم الأشياء لمرة واحدة، حتى لو كانت حكاية آسرة.

ما بوسعي أن أفعل؟

أعرف العمل ..

هذا ما أراه بوضوح..

أنا لديّ واجبي، وعلى شاكلة كثيرين

سأتباهى بوضعه جانبًا

(٤)

تُوغل قافلة رامبو في الصحراء الدنكالية بدأب يكاد يُهلك الحمّالين، فيما صاحبها لا يكفّ يشتم من استخدمهم ليطيروا به نحو زيلع إن استطاعوا. يكاد يشعر بوجع ركبته يشطر رأسه مع كلّ اهتزاز، فلا يملك إلا مزيدًا من اللعنات يصبّها على رؤوسهم كي يُبطئوا من مسيرهم، وهو يصفهم بالزنوج البُلدَاء، لكنّه ينتبه إلى أنهم لا يفهمون فرنسيته، فيعيد غضبه بالأمهرية، حتى إذا خفّ الوجع عاد يلعن تكاسلهم وهو يدعوهم للإسراع. هذه المراوحة بين طلب الإسراع ونقيضه، أفضتْ مع الوقت إلى مادة تندّر وترويح عن النفس يبحث عنها الحمّالون ويحتالون للحصول عليها، سعيًّا لضحكات عميقة مكتومة.

ألماز لا تزال في جلستها تلك، ساهمة في أغراض رامبو.

تحاول فقط أن تعيَ لمَ كان لا يعود يراها ما إن يجلس على هذا الكرسيّ الذي تجلس عليه الآن. لمَ كان يستحضر كل الشوارد البعيدة، فيما تغيب هي بالمرّة. دون أن يمنعها ذلك، ما إن ينتهي

من رسائله، ويأوي إلى فراشه، أن تهرع مرة أخرى بفرنسيتها الثقيلة تبحث، بأمل جديد، عن اسمها سدى بين الكلمات.

تتمنى لو أنّها لم تتعلّم لغته، فتنعم بجهلها. ليتها على الأقل اكتفتْ بجانبها من الاتفاق. تسترجع ما جرى كي تتخلّص منه، لكنّ ما يجري حقيقة هو أنها تزداد تورّطًا به.

«الكلمات أصبحت كالحجر الذي يجثم على صدري ويمنعني من التنفس. في أحسن الحالات يصعد هذا الحجر إلى بلعومي يسدّه ويخنقني لهذا يجب أن ألفظه. ليس ثمة من أثق به اليوم، اختفى جامي، لعله اختفى من حياتي قبل أن يختفي بجسده بكثير، وكلثوم صديقتي، جرحي الآخر، الذي سيظل مفتوحًا كغيره، اختفتْ هي الأخرى ولكن بطريقتها، ذلك الاختفاء الذي يزيد من شعوري بالعار. من تبقى؟ ليت أمامي الآن غريب يُنصتُ لحكايتي. الوثوق بالغرباء شيء سهل، أسهل من الوثوق بشخص قريب. الغريب لن يساوم لأن أمرك لا يهمه في النهاية، ولكنّ القريب قد يفعل. قد يكون أحد همومه كسرك. قد لا نتوقع ذلك ولكننا يومًا ما ندرك، وحينها تصبح الثقة نصل مغروس في القلب. هل بوسع أحد أن يتخيّل كيف يعيش الإنسان بشيء حاد مدبّب يخترق أشد الأماكن رقة فيه، كيفما يتحرّك يشعر بالألم.

كنتُ أتلصّص على ما يكتبه رامبو. نعم، كنت أفعل ذلك فقد علمني الحروف الفرنسية، والكثير من الكلمات، التي أعانتني -رغم صعوبة الأمر في بعض الأحيان- على تهجّي رسائله ومعرفة

شيء صغير مما تحمله. كنت أتلصّص بالفعل، ولكن ليس بدافع سيئ على الإطلاق، بل طمعًا مني في أن أجد شيئًا من الاهتمام ولو على الورق. هذا لم يحدث من المرة الأولى، لكنه أصبح شاغلي بعد ذلك. قلتُ ربما سيخبر أهله عني. ربما سيأتي ولو عرضًا على اسمي، ربما سيكتب جملة واحدة عن أنه يُرافق حبشية تدعى ألماز، وهي ظريفة ومؤنِسة، أو جميلة وحلوة، ذكية؟ مطيعة؟ أمينة؟ أيّ شيء. حسنًا لا داعي لأن يمدحني، سيكتفي بذكر أنني هنا على الأقل، ولكن عبثًا.. لا شيء. لم يقل شيئًا عني، لأني لا شيء عنده».

كان رامبو قد أرسل في طلب كتاب لتعليم الأمهرية، وعرض على ألماز تعليمها الفرنسية مقابل أن تُعلّمه لغتها. بدا ذلك حينها فاتحة لأبواب كثيرة؛ فلم تعد الفتاة مضطرة لتحمّل نظرات الناس المستنكرة، وهي تقضي معه أوقاتًا طويلة في السوق، بعد أن أصبحتْ تتسلّل إلى بيته كل مساء، وفي يدها مؤونة الليل من النبتة المقدّسة.

تذكر كيف بدا متعلثمًا وهو يحمل عرضه إليها. يهمّ بالقول قبل أن يعدل إلى فكرة أخرى، وهو يُردّد بتوتّر بين جملة وأخرى، «الله كريم.. الله كريم». لكنّه أخيرًا اقترب منها وغافل كلثوم وهو يقذف بطلبه همسًا بالكاد يُسمع. انتقل التوتّر إلى ألماز التي صمتتْ لبرهة قبل أن تطلب منه أن يُعيد ما قاله. فعلتْ ذلك دون انتباه لكل احترازه من أن يُشاركهما أحد الأمر، فجاء صوتها عاليًا بحيث التفتتْ كلثوم بملامح فضولية. اضطرب رامبو ووزّع بصره بينها وبين رفيقتها قبل أن يُغادر مسرعًا دون أن ينطق. لكنّه سرعان ما

عاد ولم يمضِ وقت طويل، وقد بدا أنه استجمع شجاعته. ساعده على ذلك انشغال كلثوم بزبون ثقيل. أعاد طلبه هذه المرة بوضوح أكبر، دون أن يتخلّى عن ارتباكه تمامًا. حين قابلتْ ألماز كلامه بابتسامة، هدأتْ نفسه، وشرع يصف البيت والوقت الذي ينتظرها فيه، ومضى ما إن استدارتْ صاحبتها لتلحق ما يفوتها. شعرتْ ألماز بالورطة، فلم تكن بعد قد منحته موافقتها، ولا رفضها حتى. كانت قد ابتسمتْ بغية انتظار كلام أكثر، وتوقفتْ عند هذه الحالة دون القفز إلى البتّ في الموافقة من غيرها، ولا تدري لم اختار هو القفز.

أشركتْ كلثوم فيما جرى، فسارعتْ إلى تحذيرها من الانقياد لرغبته، وهي تُشيح بيدها ذات الأساور العاجية ترجوها ألا تنخدع بحيل الأوروبيّ الكافر. كانتْ صاحبتها، رغم ميلها إلى شيء من التمردّ ما يجعلها تطرب للنكات البذيئة دون خجل، لا تقرب أيّ محظور تتواطأ المدينة على تجنّبه وتُشنّع على فاعله. لم تتبيّن ألماز طوال رفقتها للفتاة، إن كان ذلك ورعًا صادقًا أم محض خوف. غابتْ عن حديث جارتها، واستغرقتْ في استعادة حالة الهلع التي كان عليها الرجل. فيما بعد ستعرف أنّ كل ذلك مردّه لهيبة اقترابه ممن يظنّها امرأة مسلمة في هرر التي لا تتسامح في هذا الشأن. لكنّ ما سيغيب عنها في هذا الأمر أكبر، بحيث كان سيبعث في نفسها ولا ريب، بالغ الأسى لو حدث وعرفته، عوض تلك اللذة الخفيّة التي سرتْ في روحها، رغم كل المخاوف. ومع هذا، فقد كان آخر ما استقرّت عليه قبل أن تخلد إلى النوم، هو رفض طلبه. اكتفتْ بشعور السعادة

الذي أحدثه، لكنها لم تشأ أن تذهب أبعد، وهي تُدرك ما يمكن أن يُحدثه أمر كهذا في هرر.

ما اطمأنت إليه في الليل، جاء الصباح بخلافه، فوجدتْ نفسها، ما إن رأتْ رامبو، تهزّ رأسها بالإيجاب بخفّة فات على كلثوم رصدها. استغربتْ من فعلها، لكنها أرجعته إلى الشعور الذي لم يبرح روحها، ثم شيئًا فشيئًا بدأ يتكشّف لها ما ركنتْ إليه. إذ لم يكن أكثر من رغبة دفينة في أن تعيش شيئًا مختلفًا في هرر. كانت قد ضاقتْ بمسايرة الناس والاختباء وراء رغباتهم كي تظلّ بسلام. بدا الأمر وكأنها إزاء خطوة واحدة للأمام، مضمونة وآمنة، ما دام أنها دون كشف سرّها. أمر آخر شحنها بالجرأة اللازمة، فالرجل بدا لها مُسليًّا وباعثًا على الوَنس كلما مرّ بها في السوق، دون أن تلحظ عليه ميلًا إلى الثرثرة بالأسرار. بدا رفيقًا سيصبغ وجودها بالبهجة الآمنة، بعد أن غدتْ الأيام تُشبه بعضها.

هذا لاءم رامبو أيضًا؛ فرغم أنّ هرر بدأتْ تُرخي سطوتها على أنفاس الناس مع انشغالها بمناوشات مينيلك، فإن الرجل ذهب بعيدًا في مراعاة شعور الأهالي وتجنّب سخطهم. لا تعرف ألماز ولا رامبو نفسه، أنّ هذا المسلك، وبعد أعوام طويلة، سيعاد تفسيره، ليقال عن صاحبه: أسلم وحسُن إسلامه. وهو تفسير رغم جنوحه يحمل عذره في أحشائه؛ فرامبو الذي أصبح الهرريون ينادونه عبد ربه، تعلّم العربية، وامتنع عن الخمر، وحفظ سورًا من القرآن، بل غدا يُعلّمها الصِبية في العصريات، ومع هذا، فما سيأتي من طباع الرجل، قد يُعدّل من ميلان تلك الأحكام.

لا تنسى ألماز كيف بدتْ المرة الأولى، حين خرجتْ مع مغيب الشمس من بيتها قرب مزارع القات، مضطربة تؤلمها معدتها، تتلفّتْ وهي تظنّ كل عين ترقبها، وكل صوت يشير إليها. مرعوبة من أن تقع في أيدي العَسس دون أن تملك عذرًا لخروجها في وقت تقرّ المدينة بأسرها في البيوت إلا العبّاد والدراويش. تخطو بضع خطوات ثم تتوقّف لتسأل نفسها عن الضير لو عادتْ أدراجها. انتبهتْ أكثر من مرة لوقوفها وسط الطريق دون أن يغلب عليها رأي، تمضي أم تعود.

هدأتْ قليلًا حين وجدتْ نفسها أخيرًا أمام بيت بمدخل واحد وطابقين. كان الوحيد في المدينة على هذه الشاكلة، تُطلّ واجهته على الساحة الكبرى من عل. بدا غريبًا عدد القطط المتمددة أمام الباب. فكّرتْ في إزاحتها بقدمها، لكنها خشيتْ أن يلفت ضجيجها انتباه أحد، فمدّتْ جذعها من مكانها للأمام. استجمعتْ أنفاسها وطرقتْ على الباب الخشبي عدة طرقات بالكاد سمعتها هي. ربما شيء بداخلها تمنّى ألا يسمعها رامبو فتعود أدراجها، لكنه وكمن كان يقف ملتصقًا بالباب في انتظارها، فتح من فوره والابتسامة تملأ وجهه. تجمّعت القطط عند قدميه فأخذ يُربّت عليها وهو يتلفّتْ يرقب إن كان أحد يراهما، لكنه سرعان ما لعن كلبًا حين سمعه ينبح، وسارع بالدخول.

«أتساءل هل فكّر رامبو ولو مرة واحدة في تضحيتي تلك، وأنتهي دومًا إلى أنه حتمًا لم يفعل. بينما أمشي أحثّ الخطى كمن

يلاحقه وحش، أتتبع مسارًا حفرته الأرجل بين مزارع القات الممتدة، شعرتُ أنّ السماء فوقي مزروعة بالأعين التي ترقبني، أنّ الأعين في الهواء حولي وفي التراب تحت قدميّ، أنّ صوت أقدامي الذي لا صوت له أصلًا يصل إلى آذان الناس في بيوتهم وراء الأبواب والنوافذ المغلقة. وأنّ حفيف ثوبي أصبح في رأسي يدق مثل طبل. كنتُ أسمع دقات قلبي داخل جمجمتي يكاد يفجرها، أكتم لهاثي وأزيد في سرعتي وعظام جسمي ترتعد.

أين قوتكِ يا ألماز؟ وكان لسان حالي يجيبني، أنّ القوة ظلم للنفس في الخطأ، ولماذا عليّ أن أخطئ؟ فلأعد من حيث أتيت. من هو هذا الرجل؟ ومن أين أعرفه؟ هل لمجرد وقوفه على بضاعتي وشرائه مني أنصاع لطلبه هكذا بمثل هذه البساطة ضاربة كل شيء حولي عرض الحائط، معرضة حياتي وسكينتي إلى الانهدام؟ مقابل ماذا؟ ما هو الثمن؟

في الحقيقة كان هناك ثمن. قد أبدو طيلة هذه السنوات منقادة كمن يمشي في النوم، ولكنّ الحقيقة هي أنني بالرغم من ذلك كنت ممسكة بزمام نفسي، عارفة ما أريده، كنتُ أبحث عن الخلاص على يدي رامبو. خلاص من هرر التي وجدتها إلى هرر التي أردتها. أردتُ هرر لكن بعد أن تُصبح أكثر شبهًا بي، أو بالأحرى أكثر شبهًا بها في مخيلتي. كم كان سيبدو جميلًا لو تحقّق أملي. ما الضير لو أنه تحقق؟ كثيرًا ما سمعتُ بتحقّق كثير من القصص المستحيلة. لكن ما الذي جرى بعد ذلك؟ أعادني رامبو وليس هرر، بعد هذه الطريق الطويلة إلى حيث بدأت.

الخوف في تلك الليلة كان يشوبه شيء من التحفّز السعيد، كأنما في نهاية النفق يوجد ضوء بالفعل. ما أذكره أنّ مشاعري كانت خليطًا من لذة المغامرة وخشية الندم. شعرتُ أنّ تعلم الأمهرية ما هو إلا ذريعة، ولكن ذريعة لأي شيء؟ لم أكن أعرف. ما أعرفه أني قبلت بعيون مفتوحة لعبة القمار تلك، وقلت فلأذهب حتى النهاية، تداخلني نزعة الاكتشاف ويغريني ذلك السحر العجيب للشيء الغريب. الإنسان غريب دائمًا. غريب ومتطلّب. كنت أظنني سأكتفي ببلوغي هرر التي لطالما حلمت بها، ولكنّ الإنسان لا يعرف كيف يكتفي.

وصلتُ إلى البيت ذي الطابقين، ورغبة العودة من جهة والمضي قدمًا ما زالتا تتقاذفانني. أمام المبنى نزلتْ عليّ تلك الرهبة التي تنزل على المتعبّد أمام معبده، وعند المدخل توقفت قليلًا شاعرة أن نفَسي بالفعل ينقطع. لكني وصلت، ورغم كل هذه المشقة، باتت زياراتي الليلية بعد ذلك، هي كلّ ما يجعلني أتحمّل تعب النهار ومنغصاته».

أفضى المدخل إلى فناء كبير تنتهي زاويته الشمالية بسلالم خشبية تقود إلى الطابق العلوي، وثلاثة أبواب تؤدي إلى حديقة يفصلها جدار عن الفناء. تقدما صوب الغرفة الداخلية الواسعة حيث تتناثر شوالات الحبوب. أرادت أن تطلب منه فتح النوافذ لتخفّ وطأة الروائح الثقيلة، لكنها عدلتْ ما إن انتبهتْ أنّ النوافذ صغيرة ذات قضبان سميكة ومصاريع خشبية، وجميعها تطلّ على أجزاء البيت نفسه، بحيث يجب فتحها كلها حتى يحدث فارق. الطابق الأرضي

جعل المنزل يبدو وكأنه بُني كي يعيش سكّانه بمعزل عن أي اتصال مع الخارج، وهذا أراحها قليلًا. حين دعاها للطابق العلوي داخَلها قلق طفيف سارعتْ لإطفائه. بدا الأمر هناك مختلفًا قليلًا مع وجود نافذتين كبيرتين تطلان على الخارج، وتجويفات في الجدار تستقر داخلها أوانٍ وسلال ملوّنة للزينة. كان رامبو يسير وألماز كالمخدَّرة خلفه، لا تُصدّق أنها تجرأتْ على القدوم، ناهيك من التجوّل في البيت هكذا. حين أشار إلى غرفة نومه، شعرتْ بضربات قلبها تتعالى، قبل أن تهدأ حين تجاوزها إلى حيث يجلس في غرفة مفتوحة. لم تستطع ألماز أن تُمسك بحقيقة شعورها بالضبط. لكنّ اليقين أنها كانت مضطربة، ولا تعرف إن كان ذلك توجّسًا أم تطلّعًا للمزيد. كان كل ذلك في زيارتها الأولى، لكنّه تغيّر بعد ذلك.

حين استقرّتْ قبالته خطر ببالها أن تسأله عن الأغنية التي كان يُدندنها حين التقته أول مرة. استغرب سؤالها. حاول أن يتذكّر دون جدوى، فيما عجزت هي أن تقترب من لحنها على الأقل طالما لم تُمسك بأيّ كلمة.

أحبّتْ ألماز سرقاتها الليلية. سيرها الحذر في الأزقة المظلمة، كان يحقنها بنشوة لا تنتهي. هلعها حين تصطدم بلصّ هارب، كان ينقلب ضحكًا سافرًا ما إن تصل وجهتها، وتنتبه كيف أنّ كل واحد منهما قد هرب من الآخر في اتجاه مغاير. ومع هذا فلم يكن إحساس الرضا كاملًا، إذ وبقدر نفورها من دأب الناس على التظاهر بالتماهي مع وجه هرر المقدّس، لم تجد نفسها تفعل شيئًا

مختلفًا، وهي تسترق رغباتها في الخفاء. تمنّتْ لو تستطيع نزع منديلها والكشف عن وشمها دون أن يطالها أذى. تمنّتْ لو تحيا كما تريد، في المكان الذي أرادته.

ها هي ألماز بدأتْ ترى الأشياء التي لا تعجبها في المدينة تتزاحم أمامها، كلما تجاوزتْ أمرًا برز لها آخر. لم يعد المكان إذن تلك الجنة المشتهاة منزوعة الكدر تمامًا. لو كانتْ تعلم ما يعنيه ذلك لابتهجتْ؛ فهي لم تنزع عن عينها غشاوة الوهم، وهم الكمال، إلا حين انتهى لحاقها الدائم بهرر. هي إذن وصلتْ بالفعل، حين غدتْ تقف بمحاذاة ما كانتْ تنتظره العمر كله. لكن هل ذلك مبعث بهجة بالفعل؟ هل يقود نزع الغشاوة إلى سعادة المرء، خصوصًا حين يتعلّق الأمر بالأوهام؟

لم تكن لتجاري سرعة رامبو في تعلّم الأمهرية، فيما تتعذّب وهي تحفظ كلمة فرنسية لتجد أنها نسيتْ السابقة، دون أن يفقد الرجل صبره ولا جَلَده في تعليمها. كان يفعل ذلك بمحبة بادية، تكاد تظنّ معها أنه الرابح من إتقانها للغته.

كانت تتعجّب من ولع التاجر الأوروبيّ بالمعرفة. لا يتوقّف الأمر على تعلّم اللغات، فهو لا يكفّ يُرسل في طلب الكتب، مع كل حرفة يود اكتسابها. فعل ذلك مع التصوير والحدادة والنجارة. كان تعجّب ألماز سيخفّ، ولعله يكبر، إذا عرفتْ أنّ رجلها بدأ تعلم الأمهرية والعربية قبل قدومه إلى هرر، وأنه قدِم يتحدّث الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية.

سألتْه مرة بفضول طفوليّ عن الوقت الكبير الذي يصرفه إما قراءة أو كتابة، وإن كان لهذا علاقة بما نشأ عليه.

لا تعلم ألماز أنها اقتربتْ من سرّ رجلها الكبير. السر الذي دفنه هناك بعيدًا، ما إن بدأ رحلة هروبه المتعثرة مرة تلو أخرى، وكأنه يطرق في جدار صلد، بالكاد أخيرًا انفتحتْ فيه كوّة كانت كافية للفرار فغادر بلا نية عودة.

غادر رامبو شارلفيل إلى باريس مرورًا بشارلروا، قبل أن يعود بالقطار خائبًا. كرّر المحاولة، لكنّ خيبته كانتْ أكبر في العودة ماشيًا. وفي محاولته الثالثة لم يكن وحيدًا، إذ سيتعرّف على فرلين، جرحه الذي سيحمله أبدًا. يصلان معًا إلى لندن. ويعود هذه المرة طوعًا إلى شارلفيل. يتكرّر طرقه على الجدار؛ يزور ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا. ثم تتسع الدائرة فيصل على ظهر سفينة إلى سومطرة وقبرص وقناة السويس، ومصوّع. ويبدأ في عدن تجارة البنّ، ثم ينتقل إلى فرع الشركة في هرر، في الطابق الثاني تحديدًا، حيث تجلس الآن ألماز قبالته في انتظار الإجابة على سؤالها. وعوض أن يفعل، أشاح بوجهه ناحية الجدار.

لا يعلمان، رامبو الذي يهرب من السؤال بالتحديق في الجدار، وألماز التي تنتظر بصبر، أنّ تلك الرحلة الطويلة، ولفرط قطيعتها مع كل ما سبقها، خلّفتْ لدى أصحابه الكثير من الأساطير، فكلما ورد اسم الرجل أُلصقت به حكاية جديدة؛ فمرة هو ملك على قبيلة من الهمج، وأخرى أصبح زعيمًا في الجزائر، وثالثة راعيًا للماشية في

الهند. لم يجد أهل الفضول مع ندرة الأخبار عن الهارب الكبير إلا اختلاق المزيد من الحكايات الباحثة عنه.

كان رامبو سيضحك، كما يفعل الآن، لو علم أنّ تلك الأساطير استمرّت في التوالد حتى بعد موته بأعوام.

انشغلتْ ألماز عن سؤالها بضحكة مباغتة أطلقها الرجل، وهو يحكي لها دون سابق مبرر، كيف ألقتْ الشرطة القبض عليه في مصوّع حين نزل في مينائها، وبدأ رحلة التعرّف على شوارع المدينة. لفته كيف يبدو الناس قادمون من كل مكان. سمع العربية والإيطالية والتركية، ورآها قبل ذلك في الوجوه. جرّب أن يتحدث مع العابرين، فعدّوه واحدًا منهم، وتبادلوا معه النكات البذيئة. لكنّ كل ذلك انقلب عليه آخر النهار، حين لم يُصدّق ضابط القسم الذي أقتيد له مخفورًا، أنّ من يجمع حوله العرب والأحباش والترُك والأوروبيين، فرنسيّ. ولم يجد في النهاية بدًّا من إرساله إلى قنصلية بلاده. لكنّ القنصل لم يكن أحسن حالًا، إذ حين عجز عن تحديد هوية الوافد الجديد، أرسل إلى زميله في عدن يطلب مدّه بالمعلومات. كان يُملي على كاتبه في حضور رامبو، وهو يضغط على الكلمات ببطء لا يُخفي انزعاجه:

«سيدي القنصل.. وصل.. إلى مصوّع في القافلة الأسبوعية الخاصة بعدن، سيد يُسمى رامبو، ويدّعي أنه تاجر في هرر وعدن».

يجهد رامبو في تقليد القنصل وهو يقاوم ضحكاته المتقطعة قبل أن يُكمل:

«هذا الفرنسي طويل القامة، قاسٍ، ذو عينين رماديتين وذو شاربين شقراوين وصغيرين، وقد اقتاده الجنود إلى القنصلية. السيد رامبو لا يحمل جواز سفر، ولا ما يثبت هويته.. سأكون ممتنًا لك، سيدي القنصل، إذا ما وفّرت لي معلومات عن هذا الفرد، ذي المظهر المريب قليلًا».

يضحك رامبو أكثر وهو ينطق الجملة الأخيرة فتشاركه الفتاة ذلك. حين ستأتي سيرة مصوّع مرة أخرى في حواراتهما، ستتذكّر ألماز فقط كيف كان رامبو يضحك كالأطفال وهو يحكي حكايته، ولا يكفّ يتحدث عن الحرارة وكأنها النعيم على خلاف البرد المميت في بلاده. هل سترتبط مصوّع أبدًا بتلك الضحكة، بحيث تعميها عن الانتباه كيف لمن قدم من هناك ألا يكون قد عرف شيئًا عن القات؟ أم أنّها أحبّتْ فكرة أن يكون قد احتال كي يتقرّب منها، فتغاضتْ تواطؤًا حتى تُمكنّه مما تريده هي بالأساس؟

تأتي سيرة مصوّع مجددًا، فتتجاسر الفتاة، تحت وطأة ضحكة الأطفال تلك، وتطلب من رامبو أن يُعيد قصة القنصل الفرنسيّ، ساهية أو متغاضية عن معرفتها المتنامية به، لكنّه بلا اكتراث، لن يفعل.

كان سيساعد ألماز كثيرًا، لو أنّها صحبتْ رجلها في زمن أبكر، وجابتْ معه الحانات والمقاهي، لترى كيف لصاحب الوجه المتجهّم أن يُقاطع المتحدث ويُطلق طرفة فتدمع أعين رفاقه من الضحك. وكيف يبدو ساهمًا ثم يندفع فجأة ليحكي حكايات ظريفة دون توقّف، قبل أن يعود لوجومه وكأنه شخص آخر.

هل كان سيساعدها ذلك فعلًا؟ أن تعرف أنها أمام رجل بأحوال مختلفة، دون أن تدري أيها ستقابل الآن، أو بعد حين؟

لم تهدأ ألماز إلا حين بدأتْ تتجاوز ثقل الفرنسية وتفهم الكثير منها، فأخذتْ تقضي الوقت تتحرّق لاختلائها برسائل رامبو إلى عائلته وبعض رفاقه.

لكنّ هدوءها هذا لم يدم طويلًا.

يا من كنت دائمًا هنا..

ستمضي إلى كلّ مكان

(٥)

كبر شعور الخيانة في نفس جامي ما إن سمع برحيل ألماز.

مع طلوع الصبح، كانت الأم تملأ الأرجاء بصراخها، وهي تبحث عن ابنتها، وتستنهض الرجال للحاق بالقافلة قبل وصولها إلى البوابة. مرّت أمام جامي، كادتْ تحتّه كالباقين، لكنّها تذكّرتْ كيف قابلته حين جاء يُحذّرها. رأتْ كل ذلك في نظرته الهازئة، فتجاوزته وهي تواصل الصراخ.

وحدها الفتاة المتعلّقة بالشاب كانت لا تستطيع لجم ابتهاجها برحيل ألماز. قدمتْ إليه والبشر يقطر من وجهها. لم ينتبه لكثير مما قالته، كانت تشتم محبوبته وتعده بالتعويض، وتخبره كيف أبانتْ الأيام صدق ظنّها، فيما هو ساهم في البعيد. لكنه للحظة، وفي ذروة انفعالها التفتَ إليها بملامح جامدة، فصمتتْ مرتبكة. انتظرتْ أن ينطق لكنّه واصل نظراته المخيفة، فغادرتْ على عجل دون أن تفهم شيئًا.

انفصل الشابّ عن الضجيج من حوله، واستغرق في غضبه.

بدا مهانًا، وقد أحكمتْ ألماز خديعتها بحيث كان أول من وقع فيها رغم كل الحذر الذي أبداه غداة تفويت قافلة الفجر الأولى. ظلّ أيامًا يختبر مسلكها حتى سَكن إلى انصراف رغبتها. بل إنها عادتْ تقضي معه الوقت بأجمل مما كان، فعادتْ نفسه تُحدّثه أن يبوح للفتاة بما يحمله لها. وحين رأى كيف أنها لم تعد تلتفت لمرور قافلة جديدة، أدرك أنّ الوقت قد حان.

طلب منها أن توافيه مع الغروب على مبعدة من البيوت. لم يكن ذلك معتادًا، لا وقتًا ولا مكانًا، لكنّ ألماز استجابتْ دون تردد، بل وسبقته للمكان، فشعر بالكون بأسره يسند مبتغاه. يذكر كيف أخذ يُقلّب الكلام في شؤون كثيرة وهو يدفع نفسه لتكون أكثر شجاعة، والفتاة تُحدّق فيه دون أن تُمسك بأيّ معنى، إلى أن خرجتْ كلمته أخيرًا متبوعة بتنهيدة طويلة.

«أحبكِ!

هذه الكلمة السحرية قد لا يكون لها معنى في بعض الأحيان، لكننا في أحيان أخرى نظلّ نلاحقها لوقت طويل جدًا. نهدر الأيام مقابل سماعها، بلا طائل. تحبّ الحياة أن تلعب معنا هذه اللعبة، تمنحنا ما نريده ولكن ممن لا نريده، لتُعفي نفسها من تهمة حرماننا، دون أن تعطينا شيئًا رغم ذلك. عندما ظلّ جامي يدور حولها، يحاول أن ينطقها ثم يُحجم، فهمت. كنتُ أعرف مسبقًا أنه يكنّ لي مشاعر أكبر مما يكنّ الرفيق لرفيقته. المرأة تعرف هذه الأمور، تشعر بها، تستطيع حلّ خيوطها، لكني دعوت الرب ألا يفكر بمكاشفتي

بذلك، تمنيتُ أن يحتفظ بشعوره داخله دون محاولة مصارحتي به، لأني لم أكن أعرف كيف سأتصرف حينها. خفتُ أن أجرحه، وربما خفت أكثر من جرح صداقتنا. لأني رغم عدم حاجتي للعشق آنذاك، كنتُ في أمسّ الحاجة للصداقة. الحبّ شيء، وأن تستأنس بشخص هو شيء آخر. لا علاقة لهذا بمدى طيبة الشخص معك أو مدى اتفاقكما وارتياحك لوجوده. على العكس، الحب يحدث بلا مبرر. هل ثمة ما يبرر البرق عندما يقصف السماء فجأة؟ هل للصواعق مبررات، أو للمطر، أو العواصف، أو الزلازل؟ هكذا هو الحب، شيء وحشي يقصف هدوءك ويهزّ استقرارك، يبلّل قلبك، ويعصف بقوتك، دون أن تتمكن من القول إنه حدث لهذا السبب أو ذاك. قد تحبّ شخصًا يسيء إليك، ترى الأذى وتشعر به، ولكنّ قلبك لا يعرف سوى أن يهتف له، أليس من المعجزات أن يُقابل السوء بالمحبة؟ أظنّ أن الحبّ هو تلك المعجزة الصغيرة، التي ما لم تحدث مع شخص دفعة واحدة، وفجأة، فإنها لن تحدث أبدًا. ما لم تحدث من تلقاء نفسها فلن يفيد التخطيط لها أو الرغبة في حصولها شيئًا. كم يبدو مثيرًا للسخرية هذا القدر من الحكمة وهي بلا طائل. لا تزورنا الحكمة في الحبّ إلا حين لا نكون أصحابه والغارقين به. لا يعرف المحبّ طريق الحكمة متى ما ظلّ كذلك، غارقًا في حبّه.

لذلك كنتُ أعرف أنه من المستحيل أن أبادل جامي الحب. هذا الشعور بالعجز أصبح في وقت من الأوقات مرتبطًا بشعوري تجاه رامبو الذي عجز بدوره عن حبي. لا مبالاتي تجاه جامي،

أصبحت تحيلني على لا مبالاة الأوروبيّ تجاهي، ثم مغادرتي له التي بدتْ لي مربوطة بخيط سميك مع مغادرة رامبو لي. أشياء غريبة تحدث للإنسان، كأنّ المصائر مرتبطة بعضها ببعض، أو أنّ بعضها يستدعي بالضرورة بعضا آخر. قال جامي كلمته وأنا ارتعشتُ من الداخل، وفكّرت أنّ عليّ تجنب عدائه. على عكس ذلك تمامًا يجب أن أمنحه الأمل، لينسى تفكيري في الهروب ويكفّ عن مراقبتي. ولكن عيني كانت لا تزال على هرر وحدها، كنت مستعجلة للذهاب إلى مصيري الذي لم يبعد في نهاية الأمر كثيرًا عن نفس هذه الكلمة التي أربكتني كثيرًا وقتها، الفرق أنها هناك لاحقتني، بينما هنا أنا من لاحقها، وفي كلا المرتين لم تمنحني شيئًا سوى الحيرة».

ساد صمتٌ أربكه، ووجه ألماز بدأ يغيم مع حلول الظلام. لمح اضطرابًا سرعان ما اختفى وحلّت مكانه ما تشُبه الابتسامة أخذتْ تكبر قبل أن تقمعها صاحبتها، وتغادر مسرعة. لم تقل شيئًا، ومع هذا شعر أنّ روحه هدأتْ وفاضت بالطمأنينة، بعد أن خضّها قلق كبير. هذه الطمأنينة ستزور جامي بعد أشهر من غليان روحه، ما إن يتملّكه خاطر يسعى عبره للانتقام من كل شيء.

ألماز بدورها، كان يرد الشاب على بالها في هرر. غمَرها الارتياح أول الأمر، وقد ثأرت لنفسها وردّتْ له الصفعة مضاعفة. لكنّها عقب ذلك ارتدّتْ مشفقة للحال الذي تركته عليه، وهي تعرف كيف سيعود دونها إلى وحدته، خاصة بعد أن تركتْ الباب مواربًا أمام عرضه وأشرعتْ أمامه الأمنيات دون حدود حين لم ترد على

طلبه واكتفتْ بابتسامة مضلّلة. لم يكن بيدها شيء حينها. لو كانت في حال أخرى، لأخبرته صراحة أنّها لا تراه إلا رفيقًا، لا تشعر أنّها تنجذبُ لمن بعمرها ناهيك بمن هو أصغر. لا تشعر أصلًا أنها تحمل هذا الشعور لأحد، وإذا ما خطر لها مرة الرجل الذي ستحبّه، يبدو مختلفًا، ربما أكبر، أكبر بكثير. لا تعلم إن كان هذا عاديًا أم أنها تخالف أترابها. كانت قد انشغلتْ فترة بما سمعته يتردّد في السهل من كونها باردة المشاعر، قبل أن تتجاوز ساخرة تلك الفكرة. ثم إنها مشغولة بهرر، بحلمها الكبير، بحيث لا يشاركه في قلبها شيء. كان يمكن أن تُخبر الشاب بكل هذا، لكنّها جرّبتْ غدره، ولم تشأ أن تُثير غضبًا لا تعرف مداه.

الآن، وما إن ولج رامبو إلى حياتها، حتى كاد هاجس جامي يغيب تمامًا. لا يشغلها إلا التلصّص على رسائل رجلها التي يكتبها مساء، ويتركها على الطاولة ليُرسلها في الصباح إلى عدن، ومنها إلى وجهتها النهائية.

لم يبدأ الأمر على هذه الشاكلة؛ كانت لقاءاتهما في بيته امتدادًا للأنس الذي كان يُشيعه في السوق. كانت تجلس قبالته، تُصحّح له نطق الكلمات، ولا تُفوّت فرصة تقليد نُطقه الخاطئ، قبل أن يردّ لها السخرية أشدّ، فيغرقان في الضحك. ثم أصبحتْ تجلس جواره بمسافة لا تمنع تلامسهما كلّما مال أحدهما ضاحكًا. انتبهتْ بحرج، وهي تُثبّت حجابها، حين طوّقها بذراعيه أول مرة، وهو يُطري على حكايتها، قبل أن يغدو ذلك أمرًا معتادًا، كلما صفا مزاجه

بفعل نبتتها المقدّسة. تدين بالكثير للقات، للأثر الذي يتركه عليها وعلى الرجل. تلك العصارة التي يصعد بخارها إلى الرأس، بعد أن تكون رائحتها العطرية قد سبقتْ لذلك، فتبدو الحياة أرقّ وأطرى؛ تهون المنغصات ويفتر عزمها، وتُبطئ الأشياء من حركتها، فتغدو اللحظة عامرة بالأنس والصفاء. لكنّ ذلك -للأسف- لا يدوم.

كيف يتغير الناس؟ ينقلبون من اللطف إلى الفظاظة، ومن الجمال إلى القبح، يذهبون في رمشة عين من هذا الطرف إلى الآخر، هذا ما لا تفهمه ألماز. لا تفهم كيف تنقلب الأيام السعيدة إلى تعاسة خالصة، والذكريات الحلوة إلى مصدر للمرارة. كيف يُفتح الباب ومن ثمة يُغلق بلا سبب، لو أنها علمت شيئًا من مزاجية رامبو التي حكمتْ حياته كلها وشكّلت مصيره المضطرب لما استغربت.

عرفتْ أنّها أصبحت معنية به أكثر من ذي قبل، حين بدأتْ تضيق من تجنّبه لأسئلتها حول حياته في بلاده، قبل أن يقودها الفضول إلى محاولة معرفة ذلك بنفسها عبر رسائله. نمتْ فرنسيتها رسالة تلو أخرى. بدا أنّ الرسائل كانت المعين الأكبر. لكن حتى هذا شهد تدّرجًا، فقد بدأت بالافتتان بخطّ يده دون حتى أن تفهم مغزى الكلام. وقعتْ في غرام الطريقة التي يكتب بها اسمه وتوقيعه. ثم عرفتْ كيف يكتب اسم مدينتها، فتحية البدء والختام، ثم اسم أمه فيتالي، وأخته إيزابيل، والوصف الدائم لهما: صديقتيّ العزيزتيْن. شعرتْ أنه لو خُلّي بينها وبين رسائله لأتقنتْ اللغة أكثر من كل جهده معها. كان يدفعها الفضول لتلتهم كل كلمة وتطبعها

في ذهنها. رغم أنّ رسائله بدتْ كأحاديثه تمامًا؛ مقتضبة، ملولة، ولا تنظمها فكرة واحدة. وقد تنفجر أحيانًا لتسترسل في تفاصيل غريبة. ومع هذا فقد كانت ألماز تستأنس بها، لتروي ظمأ لا يرويه تهرّب رامبو من الأسئلة، وضنّه بالحديث عن أيامه قبيل قدومه إلى هرر.

أحبّتْ صلته الدائمة مع أمه. تلك الرسائل التي لا تقول شيئًا عادة بقدر ما تحفظ الوصل. يُخبرها مرة أنّه يشعر بالضجر، وأخرى يسألها عن المحصول في روش التي يبدو أنّ العائلة انتقلتْ إليها، وثالثة يحكي لها باقتضاب عن هرر «**الأرض ليست مجدبة. المناخ.. ليس رديئًا.. الريف ليس كريهًا.. ليس بورًا تمامًا**».

أعادتها الرسائل مجددًا إلى المرأة التي تركتها خلفها في السهل. لطالما استعصى على ألماز فهم شعورها تجاه أمها. تُحبّها. تحبّها أكثر من أيّ شيء آخر. لكنها ظلّتْ تراها على الدوام غير كافية. كل ذلك الحضور الخانق كان ناقصًا. تستميتُ الأم كي تحمي ابنتها من الناس والجوع، ومن جسدها. لكنّها لم تكن تتجاوز ذلك، بل على العكس كان يغمرها الرضا ببلوغها المراد، وتلوم ابنتها إذا اشتكتْ من أي شيء على بطن ممتلئة. لا تكفّ تُعيد على مسامعها، أنّ الفتاة تغنم الدنيا إذا ما صانتْ جسدها، ونامتْ شبعانة. ولا تفوّتُ فرصة لتذكّرها أنّ الرجال لا يرون فيها شيئًا غير الذي بين فخذيها، وأنّ عليها أن تباعد بينهم وبين رغبتهم الآثمة فيها، وأول الطريق صوب وجهتها، ألا تكون في حاجتهم ما استطاعتْ إلى ذلك طريقًا.

هذا الصراع مع الحاجة كان هاجس الأم، منذ الرحيل المفاجئ للزوج. لا تعرف ألماز الكثير عن هذا الأمر الذي جرى في طفولتها. كل ما حصلتْ عليه إزاء أسئلتها الكثيرة هو أنّ والدها قرّر أن يغادر. هكذا ودون سابق تفسير. يُخامرها الشكّ في هذه الرواية اليتيمة، لكنّها لا تملك لها نقضًا أو تأكيدًا. قبلتْ ذلك، لكنّها كانت تضيق بالسباق الذي دخلته الأم مع زوجها. كثيرًا ما بدا لألماز أنّ تلك الابتسامة التي كانت تعلو وجه أمها عقب كل ربح تحقّقه تجارتها الصغيرة، إنما كانت بصقة في وجه رجلها الغائب الذي لم يكن يحضر على لسانها إلا متبوعًا باللعنات.

الآن تُدرك ألماز أنّ ثمة نقمة كانت تكبر في نفسها، لأنّها لم تستطع أن تشكّل في ذهنها صورة محايدة لوالدها، صورة تخصّها وحدها، بعيدًا عن اللعنات والغياب غير المفسّر. كان بودّها أن تخلق رجلها كما تشاء، لا أن تُحرم منه مرتين؛ مرة حين رحل، وأخرى حين استعصى على خيالها بالشكل الذي تُريد.

لكنْ ماذا لو علمتْ الفتاة أنّ كلّ هذا الاستدعاء لجرحها العائلي، ليس بعيدًا عن الرجل الذي تقرأ الآن رسائله المشتاقة إلى أمّه. فرامبو ابتعد عن كل شيء من حوله، حتى يستطيع ربما رؤيته بوضوح. فعل ذلك مع نفسه، وأمه، وبلاده، وحتى عن فرلين الذي ظنّ يومًا أنّ الموت أبعد من أن يُفرقهما. لكنّ ألماز لن تعرف كل ذلك، وستظلّ مأخوذة بالرسائل الذاهبة والآيبة حتى وقت متأخر من الليل، فتغادر إلى بيتها بهدوء حتى لا توقظ رامبو الذي

لا يتخلّف عن موعد نومه، بعد أن يكون قد أطعم قططه. وما إن تصل حتى يعاندها النوم، وهي تسترجع ما قرأته، وتُقلّبه في ذهنها على كل الوجوه، رغم قلّة كلماته، وتنافرها، بحيث لا تدري إن كان عظيم القيمة بحيث يفوق قدرتها على الفهم، أم هو متخلّص من كل ذلك.

مثلها كان جامي، يقضي الليالي صاحيًا، تتناهبه الأفكار. لا يكاد يرنو إلى فكرة حتى تنقضها أخرى. لكنّه ظلّ يهجس بالانتقام، وينبش الطرقات إليه. ليس من ألماز وحدها، فرحيلها المفاجئ، فتّح جروحه كلها، ما علمها وما لم يكن يعلم. شعر أنّ الجميع مدينون له برد الاعتبار. كلّ من مرّ بحياته، ترك في روحه ندبة، حتى الذين لم يفعلوا له شيئًا، وجد أنهم قد أهانوه بتجاهلهم إياه، بمرورهم دون أن يلمحوه. كأنّ ألماز كانت الساتر بينه وبين مأساته، وما إن غادرتْ حتى وضعته في مواجهة كلّ ذلك، النبذ والإزدراء وتعالي السادة وانكسار الأشتات في السهل المنكسر أصلًا.

كلّ الأذى الذي ظنّ أنه عبره حين اقترب من الفتاة، كان قد حمله معه، تشبّع به. الآن يُدرك ذلك. يشعر بنفسه وقد فاضتْ بكل ما لاقاه في حياته، وآن أوان أن يردّ ذلك إلى الجميع، بدءًا من ألماز.

كان السهل قد بدأ يستقبل مجموعات أكبر من الباعة الجوّالين ليستوطنوا فيه تحت إغراء مرور القوافل به في طريقها إلى هرر، عوض الطريق القديم. لم يُعجب هذا الأهالي الأعلى شأنًا، لكنّهم تغاضوا حين أصبح مُقام القوافل في السهل أكبر بفعل أولئك الباعة، قبل

أن تخرج الأمور عن أيديهم مع كثرة الوافدين. غدا السهل مقسومًا بين فريقين؛ القبيلة التي تنتظر عودة إلى هرر، ويموت ناسها دون أن يحدث ذلك، والأشتات الذين استحالوا قبيلة تكبر وتتغوّل كل يوم، بعد أن وحدتها النقمة على الأهالي المتعالين.

مردّ ذلك، هو حرص الهرريين على ألا تقوى شوكة الناس في السهل؛ فكانوا يمنعونهم من شراء الأسلحة، ويراقبون عتادهم بحيث لا تغدو محفّزة على مجرد التفكير في استرداد حقّهم في هرر بالقوة، لذا لم يجد الوافدون الجدد إلى السهل مشقّة في فرض هيبتهم.

كل هذا منح جامي فرصة ليُخرج مكبوته علانية، فلم يعد مع الوقت ذلك الشاب المغلوب على أمره. لكنّ مجرد السير في الطرقات دون انتظار الأذى لم يكن كافيًا لتبرد روحه. كان غضبه عصيًّا على المحو، وقد اختلط بأحشائه، حتى غدا غاضبًا بطبيعته يتجنّبه الناس درءًا لشرّه. حتى الفتاة التي كان يُشفق عليها لفرط تعلّقها به، انفجر في وجهها يومًا وهو يُخبرها أنه لا يحمل لها أيَّ مشاعر، فغادرتْ منكسرة بعد أن قذفتْ في وجهه كلامًا أوجعه:

«تظنّ أنك لو اقترنت بالسيدة ستغدو سيدًا؟ ستظل منبوذًا، ولن تفارق الأشتات».

لذا حين سيختفي يومًا فجأة، حاملًا معه كل تلك الأحقاد، سيشعر الأهالي بالراحة، وسيظهر ذلك جليًّا حتى وهم يواسون أمّه المكلومة. ستكثر الأقاويل أنّ الشاب لحق بحبيبته إلى هرر، بعد أن أفقده غيابها عقله. لم يكن جامي يعلم أنّه كان مكشوفًا إلى

هذا القدر، وأنّ ألماز كانت مطبوعة في جبينه بحيث يراها الغادي والرائح. لكنّه مع ذلك خيّب ظنونهم، إذ لم يذهب صوب هرر بل اختار طريقًا أطول للحاق بالفتاة التي تدين له بالكثير.

وفي هرر، قصدتْ ألماز بيت رامبو أبكر قليلًا مما اعتادتْ عليه. تردّدتْ ابتداءً في فعل ذلك، لكنّها حسمتْ أمرها تحت إلحاح داخلي لم تجد له تفسيرًا بيّنًا. طرقتْ الباب مرة. انتظرتْ هنيهة ثم عاودتْ الطرق. فعلتْ ذلك ثالثة، لتُدرك خلوّ البيت. استدارتْ عائدة وهي تلوم نفسها على التعجّل في القدوم، لتجد رامبو مقبلًا يحمل أكياس خيش فارغة. بدا مضطربًا لرؤيتها وهو يتلفّتْ قبل أن يدخلا سويًا. عرفتْ أنه ذهب يتفقّد ملجأ للأيتام ويمنحهم ما فاض لديه من مؤن. لم يكد يجلس حتى طلب منها بنبرة بدتْ حازمة بعض الشيء ألا تأتي قبل موعدها مجددًا، وأن تؤجّل القدوم ليوم آخر في حال تأخرتْ. استجابتْ بحركة من رأسها وهي تحاول إخفاء ارتباكها، قبل أن تتجاوز ذلك سريعًا وتنشغل بدرسها. لكنه ما لبث أن التفتَ لها وهو يعتذر إن كان قد بدا فظًّا معها. اتسعتْ ابتسامتها وهي تنفي ذلك تمامًا، فيما تغمر روحها سعادة كبيرة. تحبّ حين يُغدق عليها هذا اللطف، حتى لو جاء على هيئة اعتذار عن فظاظة. تشعر بنفسها طفلة تحظى برعاية عامرة بحيث يمكن ألا تهتم لأمر نفسها طالما هناك من يفعل بكثير من الحرص والمودة.

باغتها مرة حين أعاد عليها الأغنية التي كان يُدندنها حين التقيا أول مرة. لم يحدث ذلك بالمصادفة، بل سألها إن كانت تقصد تلك

الأغنية. بقدر ما كانت مبتهجة بإمساكها أخيرًا باللحن الهارب، كان ابتهاجها أكبر لأنه لا يزال يذكر تلك المطاردة.

أخبرها أنها أغنية عن الاشتياق، فاضطربتْ. تمنّتْ أن يشرح كل كلمة، لكنه لم يفعل. وهي بدورها لم تجرؤ على طلب ذلك، واكتفتْ ببضع كلمات حفظتها، وأصبحتْ تترنّم بها كلّما خلتْ بنفسها.

غدتْ ألماز ساهية عن كل شيء عدا رسائل رامبو. تبحث عن مزاجه بعد أن أعيتها ملاحقة جديد لا تعرفه. يُغيظها انصرافه إلى شؤون التجارة، مرة يُخبر أمّه كم ادّخر من التالرات والروبيّات، ويُبشّرها بقرب تحقّق الحياة الرغدة. ومرة يُرسل لشريكه يلعن البنّ الذي يُحبّ شربه، لكنّه لا يكفّ يكبده الخسائر، إذ ما إن يشتري بضاعة حتى يكتشف لاحقًا أنّها مغشوشة بالتراب. تتوقّف كثيرًا عند حديثه عن هرر، تبتهج حين يُخبر أهله أو رفاقه كم هو ممتن للدفء في المدينة، على خلاف البرد الذي تركه خلفه في فرنسا. لكنّه لا يلبث أن يصفها بالبلد الشيطاني، وأهلها بالزنوج الكسالى، وكيف أنه بدأ يعاني بسبب إقامته فيها من آلام في جسده تتناوب عليه. كان رامبو يحكي أشياء عادية بكثير اهتمام، فلم تعد ألماز على يقين ما إذا كان ذلك لأهمية الأمر، أم أنّ الرجل يكتب كل ما يخطر بباله دون تمحيص. خطر لها والحال هذه، أنه قد يكتب عن ضيقه بنباح الكلاب من حوله، لكنّها لم تُصادف شيئًا بهذا الخصوص.

في رسالة وجدته يحكي لأهله أكثر عن عمله في هرر «**نسيتُ أن أقول لكم إنني وقعت عقدًا للعمل هنا طوال ثلاث سنوات، الأمر الذي لا يمنعني من الانتهاء منه بفخر وثقة، إذا لم تحصل لي حوادث بائسة. مرتبي يبلغ ٣٠٠ فرنك، دون المصاريف ونسبة معينة على الأرباح**». قبل أن يُخبرهم بأمر بدا لها مستحيلًا، واستغربتْ أن يعلم به رامبو دون أن تسمع به «**سيحلّ في المدينة قريبًا مطران كاثوليكي، وسيكون الكاثوليكي الوحيد في البلاد على الأرجح، فنحن هنا في بلاد قبائل الغالا**». لكنها ابتهجتْ وهي تقرأ خاتمة الرسالة «**طلبنا آلة فوتوغرافية، وسأرسل إليكم لاحقًا صورًا عن البلاد والناس، نتلقى أيضًا في وقت قريب المواد الخاصة بعمل عالم التاريخ الطبيعي، يمكنني أيضًا أن أرسل إليكم لاحقًا عصافير وحيوانات، ما رآها أحد بعد في أوروبا، في حوزتي راهنًا بعض الغرائب والطرائف، وأنتظر الفرصة المناسبة لإرسالها إليكم**».

«أذكر سعادتي الطفولية عندما قرأت في رسالة، خبرًا عن انتظار رامبو لآلة تصوير. لا بد أنها منتشرة في بلده، ولكن هنا في هرر، المرة الوحيدة التي رأيت فيها هذه الآلة العجيبة كانت بيد أوروبي مثله، يجوب بها المدينة بأكملها. لم أكن أعرفها، ولكنني رأيته يتوقف أمام بعض الأبواب والأشجار والحيوانات. في السوق أيضًا كان ينتبه فجأة أمام عربة بضاعة، أو شخصين يتناكفان، أو يتحدثان بهدوء. يقف، كمن أفاق من غيبوبة ويلتقط صورة سريعة. بقيتُ لأيام أتبعه بعينيّ كلما لمحته، وفي أحدها استجمعت جرأتي وذهبت إليه، طلبتُ منه أن أشاهد صوره، فأراني بعضها من خلال ابتسامة ودودة، ولقد

أذهلني ما رأيت. كيف لآلة كهذه أن تمسك باللحظات التي تمضي إلى الأمام ولا تعود، كيف تحبس ابتسامة المرء بداخلها إلى الأبد، أو حزنه، أو لحظة شروده، أو تعابير وجهه في لحظة غضب أو فرح أو امتنان؟ هذا عجيب عجيب. وخمّنت لحظتها أن بوسع المرء إذن أن يحفظ شبابه في هذه الورقة ذات السطح الأملس اللامع، ويحفظ وجوه الذين يحبهم مهما غابوا، ويحفظ لحظات السعادة الذاهبة بغير عودة. بدا أنّ الأوروبي يرغب في أخذ صورة لي. كان يتلفّت ويوشك أن يطلب ذلك. غير أنه ركن إلى الحيطة والسلامة وصرف الفكرة عن باله.

وحين علمت أنّ رامبو سيمتلك واحدة، راحت الأفكار تتراكض داخل رأسي مثل جيوش من النمل، منعتني لليالٍ من النوم، وأنا أتخيّل كم صورة سيلتقط لي؟ كيف يجب أن أقف؟ وكيف سأبتسم؟ ماذا يجب أن ألبس؟ أين من الأفضل أن يلتقطها لي؟ فكّرت أنها في السوق ستكون أجمل، ثم قلت إنها لن تكون سيئة أيضًا في بيته، وماذا عن بيتي؟ ثم قررتُ أن أطلب منه أن يصورني في كل تلك الأمكنة، وربما في أماكن أخرى أيضًا، آهٍ! كم تمنيتُ لو عندي صورة اليوم تجمعني بكلثوم، القطعة التي سقطت من حياتي هي الأخرى وجعلتها كالجدار الخرب. صورة لها وهي بكامل عنفوانها ونشاطها وحلاوة ضحكتها التي تتقدمها سنها الذهبية الجميلة.

يداخلني الشعور أحيانًا أنّ تلك السنوات كانت مجرد وهم في رأسي، أنّ الأمر تجمّد عند وقوف رامبو على بضاعتي وشراء

القات وأنّ ما حصل فيما بعد لم يحصل حقًا. بعد خيبة الأمل يميل الواحد إلى إنكار كل ما جرى معه. يصبح الجسد أقل قدرة على احتمال الهزيمة. الفشل يستنزف الواحد منا، ينهيه، يعطبه، يعيقه عن مواجهة ماضيه، كيف سيفتح الجراح في كل مرة وينظر إليها؟ أي شخص عنده هذه القوة؟ لذلك يكون الإنكار أدعى للراحة. فيما بعد، عندما تندمل الجراح، يعود للبحث عما يدعم الحقيقة، أنه عاش هذا الشيء حقًا، بحلوه ومرّه. لو أنّ لي صورة معه الآن، لعلقتها في رقبتي بخيط كالقلادة، حتى أتذكّر، حتى لا أنسى، لأنّ ما أطلبه اليوم ليس النسيان، بل شيء آخر».

لكن هل تحيا ألماز الآن لحظة بصيرة نافذة؟ هل ترى من مكانها على كرسيه كل ما جرى بالوضوح اللازم، أم استبدلتْ غشاوة بأخرى، والجموح نفسه لكنه في الاتجاه المخالف؟ هل تراها بالتفاتها العميق إلى الوراء ترى ما جرى على حقيقته حينها، أم تراها تنظر إليه عبر ما جدّ على خاطرها وتكدّس فوقه؟

مع الوقت انتبهتْ ألماز أنها إنما كانت تبحث عن نفسها من خلال تعقّب هرر في الرسائل، عن الأثر الذي تتركه المساءات التي تقضيها في بيت رامبو عليه. تؤنِس نفسها بالقول إنّه من غير الوارد أن يحكي لأهله عنها من الأيام الأولى، وهي بالكاد فتاة تُعينه على تعلّم الأمهرية، وأنه سيفعل ذلك حتمًا في قريب الأيام.

هنا بدأ الانتباه يكبر شيئًا فشيئًا إلى أنّ الفضول لم يعد خلوًا من شعور ما تجاه رامبو. شعور يكبر أكثر من قدرتها على كبحه.

كل النساء اللائي عرفنه متن اغتيالًا

لم يُطالب هو بأخريات
وعاودت النساء الظهور!

(٦)

عمّ الذعر السوق، والمآذن تصدح بالنفير لحماية المدينة.

أخذتْ ألماز تلمّ ما أمكن من بضاعتها، وهي ترقب صياح الناس يركضون في كل اتجاه، فيما يتأهّب الرماة على أبراج المراقبة، وإمدادات الجنود والعتاد تزحف صوب البوابات الخمس، يتقدمها رجال الحامية المصرية. لمحت العجوز بائعة القهوة في مكانها، تغسل الفناجين بالتؤدة نفسها، وترصّها قرب بعضها، دون أن يسترعي انتباهها اضطراب المدينة.

كانت تشقّ طريقها بعناء نحو بيتها رفقة كلثوم المضطربة، وقد كوّرتْ حزمها في قماش كبير دون أن تلتفت لما يتساقط منه، قبل أن يخطر لها أن تتفقد رامبو، فغيّرت وجهتها نحو بيته بعد أن أقنعتْ صاحبتها بعَنت كبير أنها ستلحق بها. كانت المرة الأولى التي تفعل ذلك نهارًا، لكنّها في غمرة ارتباكها وقلقها لم تجد نفسها إلا وهي تطرق بابه بشدّة. فتح لها مستغربًا وقوفها أمامه. انكمشتْ ابتسامتها لرؤيته وهو يسأل محتدًا عن سبب مجيئها، فيما يتلفّت يرقب إن كان

أحد قد انتبه لوجودها، قبل أن يصرفها بغلظة. حين أغلق الباب، كانت في مكانها لمّا تغادر بعد. ظلّتْ تُحدّق في الباب الموصد في وجهها، في خشبه السميك، ونقوشه الدقيقة، للطخة في جانبه لم تتبيّن كنهها، لصدأ داهم مقبضه الحديدي وآخذ في التمدّد. استغرقها الأمر وقتًا حتى تستوعب ما جرى. حينها فقط استدارتْ عائدة.

في الطريق إلى بيتها، كان الغضب يستبدّ بها حتى انتهتْ إلى أنّها لن تعود إلى زياراتها الليلية. كرهتْ جُبنه أمام الناس ومراعاتهم حتى حين يكون الجميع مشغولين بأنفسهم. لم يخطر ببالها سبب آخر. عزمتْ ما إن تراه في السوق حتى تُسمعه الكلمات المكتومة في قلبها، والتي ألجمتها المباغتة عن قولها. لكن ما إن حلّ المساء، حتى خفّتْ الفكرة وهي تجد له العذر تلو الآخر، قبل أن تنقلب تلوم فعلها على جرأة غير محسوبة، لتجد نفسها آخر الأمر، تغادر بيتها على مهل كي لا تنتبه لها جارتها، وتقف أمامه من جديد. فتح الباب هذه المرة مبتسمًا وهو يدعوها للدخول. بدا على غير الهيئة التي كان عليها بالنهار، دون أن يمنعه ذلك من مدّ رأسه ليرى إن كان ثمة شهود على زيارتها. وما إن جلسا حتى قدّم لها اعتذارًا بدا صادقًا، لكنّها هذه المرة لجمتْ ابتسامة كان يمكن أن تظهر أمامه واسعة كما اعتادتْ، واكتفتْ بما غمر نفسها من سعادة.

منذ ذلك اليوم، وكلما أُشيع أنّ هجومًا مرتقبًا لقوات مينيلك يحيق بهرر، أصبحتْ ألماز تكتفي بالفرار إلى بيتها، دون التفكير في المرور برامبو. الحقيقة أنها كانت تفكّر، لكنها على خلاف المرة الأولى، كانت أكثر قدرة على لجم رغبتها.

أما هو فقد بدا خلال الأشهر التالية، أكثر انبساطًا معها، فبعد أن كان يكتفي بالإشادة بفرنسيتها المتنامية، أبدى مرة إعجابه بعينيها حين تستغرق في الضحك. فعل ذلك بطريقة شعرتْ معها برعدة تسري في جسدها. حدث كل شيء بشكل مباغت؛ حين ضحكتْ على تعليق رمى به فجأة، ثم رأته يقترب منها ويتلمّس بأصابعه حاجبها وطرف عينها، قبل أن تخرج كلماته بطيئة وعميقة. كتمتْ شهقة وهي ترقب يده تمرّ على وجهها. تمنّتْ حينها ألا ينتبه لجسدها يرجف ويتعرّق. ومع هذا لم تستطع تمييز شعورها حين عاد سريعًا إلى كتاب الأمهرية، وكأنه كان إزاء مهمة أنجزها على أكمل وجه، ثم رجع لطبيعته المتجهمة. لكنّ هذا لم يمنعها من الانتباه في كل مرة تضحك فيها، أنّها غدتْ أجمل. لمحته مرة يسترق النظر إلى صدرها حين مالت تلتقط قلمًا سقط منها على الأرض فاتسع مدخل ثوبها عند النحر.. كان ذلك أول اهتمام حسّي تلحظه منه.

«حينها داخلني اضطراب كبير. تجمّدتْ له أطرافي، وشعرت كما لو أنّ يدًا تقبض على معدتي وتعصرها، ذلك لأني لطالما كرهتُ هذا الصدر المنكفئ ولم يكن ليخطر ببالي أن يسترعي انتباه أحد وهو بالكاد يطلّ من مكانه. قد يكون من الغرابة لو قلتُ إني لا أحبّ جسدي، علاقتي به منقطعة. علمتني أمي كيف أفعل ذلك، وهي تحذّرني منذ نشأتي المبكرة، كيف يجب أن أدفنه، أطويه وأخبئه جيدًا فلا تطاله يد، ولا حتى يدي. علّمتني كيف أنساه لينساه غيري، وكيف أتعامل معه على أنه عبء، مجرد عبء كبير، عليها وعليّ وعلى القبيلة بل والبشرية بأسرها. هنالك طريقة واحدة تتعامل بها

النساء مع أجسادهن وفق ما علّمتني أمي، ألا وهي العنف، العنف عبر اعتقاله مثل حيوان أرعن، لو وجد فرصة للهروب لأفلت. لذلك نتربّى على حبسه جيدًا، إحكام أغلاله، وتكثير أقفاله. نسأل أجسادنا عما تريده؟ ليس عليها هنا أن تريد شيئًا. جسدي لم يرد شيئًا في يوم، ولا جسد أمي بعد هجر أبي لها وهي في فوران اكتمالها، ولا أيّ من النساء الأخريات. نحن ننكر أجسادنا حتى لا نعود نشعر بها، لا يحركنا تجاهها سوى الشعور بالاغتراب واللاانتماء. أحدنا يحمل الآخر لأنه مجبول على حمله فقط لا أكثر. هذا الثقل المربوط بي ينام في مكان قصيّ. لكن ها هو رامبو يتلصّص عليه مرة بعد أخرى ليبعث فيه الحياة، ويُعيد له اعتباره، عندي قبل الناس جميعًا. إنّه الأمل مرة أخرى، يسقط من السماء في يدي فجأة، وكما عادتي أحتار عما سأفعل به، لكني قررت أن أترك الوقت يفعل. تتبدّى حماقتي الآن حين أتذكّر كيف سارعتُ لشراء مرآة صغيرة، وغدوت أتملّى عبرها في وجهي وصدري. وكنتُ، وهنا الغرابة، أمحي كلّ تأريخي الذي أعرف، وأصدّق رامبو، نظرته بالأحرى، وقد قالت الكثير، مرة نعم، لكنها كانت كافية لتبدو أبدية في ذهني.

حين أضع قسوته تلك يوم صرفني من أمام منزله في كفّه، واعتذاره الصادق ثم إعارة جسدي الميّت تلك النظرات التي أحيته في كفّة أخرى، أجد الثانية راجحة دون تفكير».

أحقًا كانت ألماز تكره جسدها؟ أم أنها في أعماقها تحبّه وتُشفق عليه؟ هل قتلته في الماضي حقًا، أم تظاهرتْ فقط بذلك ودفنته

حيًّا، متمنية أن يأتي يوم تُخرجه فيه من حفرته وتنفضُ عنه التراب، فتجده على حاله لم يمسسْه سوء؟ هل نظرات رامبو كانتْ الذريعة المثلى لفعل شيء لطالما تاقتْ إليه دون وعي؟

«أستغرب كيف أني لم أعد ذاتي، تلك الفتاة المستغنية عن الناس بنفسها مهما اضطرتْ، ناهيك من أن تجد أعذارًا لما جرى. لكنّي هنا مغمورة بالسعادة، وهذا يكفيني ويغفر كل شيء. صحيح أنّ رامبو لم يقل أو يفعل شيئًا صريحًا، غير أني بدأتُ أشعر رويدًا أنّ رابطة أقوى بدأتْ تُنسج بيننا. قوة المرء يجدر أخذها في الاعتبار من لحظة تورّطه عاطفيًا، عدا ذلك فالناس في القوة سواء».

وصلتْ آلة التصوير، فشعرتْ ألماز بالتحفّز. تابعتْ انشغاله بتركيبها بلذة ممزوجة بالترقّب. تنتظر صورهما المشتركة، وتفكّر في المكان الأنسب، وإن كانت ستقف عن يساره، أم تكون جالسة لصقه. انشغلتْ بالتفاصيل قدر انشغاله بجمع قطع الآلة مستعينًا بكتاب شارح. لكنه ما إن انتهى حتى سارع إلى الخارج يلتقط لنفسه صورة بين أشجار الموز. كانت تنتظر أن يدعوها على الأقل، لكنها سرعان ما طردتْ خيبة أملها الصغيرة بتسامح، فأمامها من الوقت ما يكفي لتحقيق رغبتها.

لكنّها بعد حين ستصاب بالاضطراب حين تقرأ في رسالة لأهله تقول إنّه سيسافر قريبًا. زاد في ذلك أنه بدا متحفّزًا لترك هرر أكثر منه راغبًا في الذهاب إلى وجهة بعينها. أمسكتْ الورقة بيد مرتعشة، وهي تُعيد التأكّد مما تقرأ:

«لن أبقى هنا مدة طويلة، أعرف قريبًا موعد الرحيل، وما وجدت هنا ما كنت أتوقعه، أعيش بطريقة مضجرة، ودون أيّ مكاسب، سأرحل حين أتوصّل إلى جمع مبلغ ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ فرنك، وسأكون مرتاحًا جدًا لذلك، سأجد عملًا أفضل في مكان أبعد من هذا المكان.. المناخ هنا يغدر بالمرضى كلهم، الجراح لا تندمل، إنّ جرحًا في الإصبع بحجم ميليمتر واحد يتقيّح طوال شهور، ثم يتحول بسرعة إلى غرغرينة».

بدتْ فاقدة التركيز طوال نهارها في السوق. لا تملك أن تُجاري تعنّتْ المشترين في انتقاء حزم القات الجيدة، فكانت تَصرفهم متى ما أراد الواحد منهم إطالة مكوثه لديها، أو تبيعه بما أراد دون مقاومة. فكّرتْ أن تلمّ بضاعتها، وتقصد بيته، لكنّها تذكرت ما جرى آخر مرة. تتناهبها الأسئلة؛ هل سيغادر إلى الأبد، أم مدة ويعود؟ ما الذي يُضايقه في هرر، وهو لا يكفّ يُخبرها ويُخبر الناس عن سعادته بينهم؟ ودّتْ لو تملك جرأة أن تقول سعادته «معها»!

ومع هذا لماذا لم يخطر بباله أن يُعلمها بقراره وهي رفيقته ومؤنسة لياليه؟ هل تكون هي السبب؟ لكنه يبدو معها خلاف ذلك. ثقل رأسها بالحيرة قبل أن تتبدّد كلّ تلك الأسئلة حين تذكّرت قوات مينيلك التي تواصل تهديد المدينة، وتنشر الرعب فيها. خشيت أنها تتمركّز غير بعيد بحيث لا تغدو الطرق آمنة، فيصيبه مكروه بمجرد تخطّي سور المدينة. ما لا تعلمه ألماز أنّ ملك شوا لم يكن قريبًا وحسب، بل ستقرّبه قوته المتنامية أكثر وأكثر، بعد أن ينضم له رجال غاضبون، ويتلقّى عتادًا كبيرًا بمبلغ زهيد.

لكنّ الأهم أنّ حكاية أخرى غائبة عنها كانتْ تحدث في الجوار؛ فنزاع السهل أخذ يكبر بعد أن مالت الكفّة لصالح الأشتات في ظلّ عدم قدرة الأهالي على شراء الأسلحة، فبدأوا يفرضون شروطًا على أصحاب المكان قيّدتْ تجارتهم، وأخضعتْ أكابرهم، ومن أبى منهم ناله التهجير. بدا غريبًا حينها كيف أنّ فئة تآلفت سريعًا مع الغالب الجديد، وانقادتْ له طوعًا ضد جماعتها، بل كانت أكثر تفننًا في الإيذاء. القلة المهجّرة كانت كانت أكثر عنادًا، يُحرّكها رفض الانقياد للأشتات أكثر منه الشعور بالظلم، فبدأتْ تُلملِم شملها وتتقوّى حتى تمكّنتْ من الإغارة أكثر من مرة على القوافل أثناء مرورها بالسهل في الطريق إلى هرر، لكنّ ذلك لم يُغيّر من الحال كثيرًا، عدا قليل انزعاج لدى الغالبين الجدد. وحين بدا أنّ الأمر قد استتبّ للأشتات في حكم السهل، وبدأوا في تنظيم حياتهم على ما استقر عليه الأمر، أغارتْ عليهم فرقة أرسلها أمير هرر، قتلتْ منهم من قتلتْ، فيما فرّ البقية، لتؤول الأمور من جديد لأهالي السهل، المهجَّرين منهم تحديدًا. فيما ستجد الفئة التي انحازتْ ضد ناسها ألف مبرر لطلب الغفران، وتنخرط سريعًا في قرع الطبول احتفالًا بانجلاء الغمّة. كانت تلك طريقة أمراء هرر في الإبقاء على السهل آمنًا، لكن مأمون الجانب في الحين نفسه. سيحتار أكابر الأهالي بعد ذلك في تفسير نجدة الأمير لهم، فيستقرون في النهاية على أنّ رابطة الدم غلبتْ الدين، وذلك ما شجعهم على إرسال وفد يطلب العودة إلى هرر، ونسيان كلّ الخلاف، وما كان يدور بذهنهم أنهم سيتعرّضون للإذلال قبل طردهم ولمّا يصلوا بعد إلى بوابة المدينة.

حين ستعاد هذه الحكاية بعد أعوام، سيتوقّف الناس عند الاحتفال بطرد الأشتات، دون أن يهتموا بالمصير الذي انتهى إليه المغلوبون، إلا على سبيل الاحتراز الذي سلكه الأهالي من أيّ وافد جديد. أما الهرريون داخل السور، فحين يسترجعون ما جرى لهم بعد ذلك، وعلى خلاف الواقع، لن يكون لهذه الحادثة أيّ وزن لديهم، هذا إذا تذكروها من الأساس.

«ظننتُ أن نظرات رامبو المعجبة، فتحتْ أمامي كوة واسعة للحلم، وصالحتني بجسدي وحتى روحي، قلتُ سأترك للوقت فرصة ليغيّر الحال ويحقق الأحلام، ظننتني أسير في طريق سالكة نحو السعادة، وأنّ زمن الخروج من القبر ونفض التراب قد اقترب. أسوأ شيء هو التوقع، عندما تنتظر شيئًا بكليتك ولا تترك مجالًا ولو ضئيلًا للشكّ بالأمل. الأقدار قادرة دائمًا على تغيير وجهتها بسرعة وقد كان عليّ التفكير بإمكانية حدوث ذلك، إذ لا مجال -في حالتي- للمقامرة مع الحظّ، ولكني فعلت، وعشت فيما يشبه الغيبوبة لأيام وأيام، حتى عثرت على تلك الرسالة.

انتظرتُ حلول الغروب لأحمل مخاوفي وأقصد بيته. هناك وبصوت مرتجف ولكنه مصمم سألته هل حقًا ينوي العودة. كنتُ قد حضّرت إجابة مسبقة، في حال سألني من أين علمت بالأمر، لكنه وللغرابة لم يفعل، فقد كان رائق المزاج. أغدق في إطعام القطط من حوله، ولم يكن منه أمام سؤالي الملتاع سوى أن رفع حاجبيه متفرّسًا في وجهي قبل أن يُطلق ضحكة مجلجلة. بقيتُ واجمة أمامه

لا أجد ما أقوله أو أفعله، قبل أن يدعوني برقة إلى الجلوس. جلستُ فجلس إلى جواري مطرقًا، ودون أن يرفع رأسه، دنا مني قليلًا، ثم سلّط نظرته الثابتة، التي أعرفها جيدًا، على عينيّ. أحسستُ بنبضي يتسارع، وقلبي يرتجف، أمسك بيدي، ومرّر كفّه على كفّي ببطء تسارعتْ معه أنفاسي وبدأ ما يشبه الدوار الخفيف يلعب برأسي. حاولت جاهدة تمالك نفسي، ورحت أنقّل بصري بينه وبين يده التي تجوس في يدي. وعلى الرغم من شغفي به وشعوري برغبة جارفة نحوه، اكتشفتُ أني لم أتصالح تمامًا مع جسدي وفكرة استحضاره هكذا دفعة واحدة، وبمثل هذه السرعة. فقد مرّ وقت طويل، طويل جدًا يعادل عمري بأكمله. لا يزال بالنسبة لي هلاميًّا، شبح لا أعرف بعد كيف أفعل ليصبح حقيقيًّا، مجرد ظلّ يغيب ويظهر دون أن يحجز مكانًا دائمًا.

مرّ وقت مربك، قبل أن يجيء صوته ويخرجني من دوامة أفكاري. قال إنّ هذا سفر عظيم الشأن، يعني له الكثير لأنه سيغيّر حاله تمامًا. ولكنه سيعود، حتمًا سوف يعود. ارتحتُ كثيرًا لكلمة العودة هذه. هذا كل ما عنى لي من الأمر برمته، فلم أسأله عن مقصده بعظيم الشأن. خرجتْ مني تنهيدة عميقة كأنّ ثقلًا انزاح عن صدري، وأدركتُ أني بالغتُ في تضخيم الأمور. كيف لم يخطر لي أنه كثير السفر بسبب أعماله، ومن المعتاد أن يسافر، لكنه في النهاية يعود. يعود. هكذا عادتْ لي خفّة روحي وتبددتْ سحب الحزن عني».

على الدوام بدتْ ألماز على حافة الأمل، بقدر ما توشك تسقط عنه، تُعيدها كلمة للتشبّث به بيديها كلتيها. ما الذي كان ينقص

الفتاة لتكفّ عن المشي داخل منام، أو وسط غيمة من الضباب الكثيف؟ أم تراه مكانها الآمن؟ الأوهام مكان معدّ على مقاسنا تمامًا، وكلما انغمسنا فيه تبدّى لنا ذلك بوضوح. بوضوح؟ ألا تبدو هذه الكلمة في غير مكانها حين تقترن بالأوهام؟

كان ما يزال يعبث في كفّها، بين أصابعها. لم يعد ينظر في عينها. استغرق بكلّ ما فيه في اليد، وكأنه يبحث فيها عن شيء ضائع. بدا -في تلك اللحظة تحديدًا- وكأنه يستدعي فتوحاته الشخصية؛ فتوحات الأوروبيّ القادم من بعيد ليعبر السور الشاهق ويلج المدينة العصيّة، وها هو يسير بتؤدة، يتلفّت بانتباه، لا يودّ أن يفوته شيء. يمدّ يده يوشك أن يقطف تفاحة داخل حقل بالغ الحرمة، وتسري في عروقه اللذة التي تسبق الوصول وتُحفّز عليه. يتملّكه زهو القادرين، وينعكس لمعانًا في عينيه على غير العادة، وتراخيًا في حركته. كان ما يزال يُطالع يدها.

«مثله، أصبحتُ أنظر في يدي، لكن لأتتبع مسيره. انتقل إلى رسغي، حيث المنديل المعقود. بدأ يعبث به على مهل، ويحاول فكّ عقدته دون أن يُغادر الارتخاء حركته. سألني إن كان حجابًا، فهو يعرف عن المسلمين هذه الأشياء. لم أتمالك نفسي وأنا أضحك ضحكة عالية، شعرتُ أنه تفاجأ بها، ثم رفعتْ عينيّ لتستقر في عينيه اللامعتين. سحب يده مستغربًا، فأزحتُ المنديل كاشفة عن الصليب المطبوع على رسغي، ثم خلعتُ غطاء رأسي وأزحتُ الغرّة المتدلّية فظهر الصليب الذي يعلو جبيني.

لوهلة بدا لي كل شيء مواتيًا لأكشف لرامبو سرّي أخيرًا. أردتُ أن أستريح من هذا العبء على الأقلّ أمامه، ولكن لكي أريحه أيضًا، فلا شكّ عندي أنّ هلعه من انكشاف أمر زياراتي الليلية له إنما يعود لجلل أن يفعل ذلك رفقة مسلمة في هرر. فعلتُ ذلك بكل البطء اللازم لأطيل من عمر اللحظة التي سأحقن فيها رجلي بالطمأنينة، فيغادر مخاوفه. لكني لا أعرف فيما بعد إن كان قد اكتفى بتعديل جلسته، أم زاد عيها بأن تراجع للخلف قليلًا. انكمشتْ ملامحه فجأة وعلتْ وجهه صفحة من غيوم داكنة. ظللتُ أحدّق في وجهه لا أفهم ما الذي حصل. لماذا تلبّدت ملامحه هكذا في الوقت الذي ظننتُ فيه أنها ستنفرج؟ سألته وأنا أعرف الجواب، إن كان يظنني مسلمة كل هذا الوقت؟ هل صدمه هذا؟ لكنه لم يجب. اكتفى بتحديقه في الصليب، قبل أن يقوم من مكانه وهو يخبرني أنّ عليه إنجاز كثير من الأمور استعدادًا لسفره القريب. فعل ذلك بكل الهدوء اللازم ليصرف ارتباكه. لكنّي وعلى خلاف العادة، رأيتُ ذلك حينها بوضوح».

إنها الكلمة نفسها مجددًا؛ الوضوح!

كانت المرة الأولى التي تعود فيها من عنده على غير المزاج الذي جاءتْ به. طوال الطريق لم تجد سببًا لصدمته مما رأى. كان حرّيًا أن يرتاح بما عرف، وهو الذي لا يكفّ يتوجّس من الإخلال بالعرف أو جرح الشكل الذي اختارته هرر لنفسها. مضتْ الليلة الطويلة دون أن تهتدي ألماز إلى شيء. وستمرّ ليال أُخر، تتقاذفها

فيها الظنون مع كل خطوة يخطوها رامبو بعيدًا عنها. ستبذل الكثير من الجهد ولن يخطر ببالها أنه فقد الكثير من شغفه بها بمجرد أن رأى الصليب. انقشعتْ عنها كل تلك الهالة من القداسة. سيفقد التلصّص معناه، وتخسر السرقات قيمتها، سيخرج من دائرة الحرام إلى العاديّ، ومن النادر إلى الوفرة. سيخرج من إهاب هرر المتخمة بالأسرار، ويغدو كأيّ شخص يتجوّل بضجر في ليلة باردة وسط مدينته شارلفيل. لن تعرف ألماز كيف انتقلتْ من مكانة إلى أخرى دون أن تُفارق مكانها، كيف استحالتْ شخصًا آخر على خلاف ما أرادتْ وسعتْ. لكنها وحين تظنّ أنها غدتْ ترى الأمور بالوضوح اللازم، ستكون بعيدة جدًا عن بلوغ ذلك. هل كان سيفيد لو عرفت الفتاة أنّ رجلها وقبيل قدومه إلى هرر طالع مجلة تتحدّث عن جمال الهرريات المخبّأ وراء السور، وأنّ قلّة نادرة أتيح لها ملامسة تلك الأجساد الناعمة الشبقة بالغة الحرمة، فلم تعد إلى الحال الذي كانت عليه قبل ذلك؟ هل سيفيدها لو عرفت أنّ رامبو جاء إلى المدينة تسبقه كل تلك الخيالات عن الحرام المستحيل؟

عادتْ الحياة لطبيعتها في السهل، ونسيَ الناس ما كان من أمر الأشتات، بعد أن راجتْ بينهم بعض الأقاويل. قيل إنهم هبطوا منكسرين بجماعة بعيدة. وقيل إنهم تفرّقوا فماتوا عطشًا في الصحراء الدنكالية. وقيل إنهم أُخذوا عبيدًا وحملتهم المراكب إلى أسواق نخاسة وراء البحار. كثرتْ الأقاويل قبل أن تخمد وتُترك تمامًا. ومع هذا فلم يكن الأشتات قد غادروا بعيدًا، إذ أشار عليهم ناصح بأن يلتحقوا بجيش مينيلك ملك شوا، الذي يجمع الأتباع

لقاء مبالغ مجزية. وهو ما كان. إذ لم يمضِ وقت طويل حتى وجد كل واحد شيئًا يعمله؛ الرجال في الخدمة العسكرية، والنساء وكبار السن في الطبابة وخدمة الجنود. ساعدهم على ذلك أنهم وجدوا جامي قد سبقهم إلى هناك ولحقتْ به أمه، فاستطاع ضمّهم إلى فرقته المعنية بالاستطلاع تبعًا للدراية بالمنطقة وأهلها. ليس هذا وحسب، بل وفي النار المتقدة في صدر كل واحد منهم.

رأيت ما يكفي..

نلتُ ما يكفي.. صخب المدن، في المساء، وتحت الشمس، وإلى الأبد

عرفت ما يكفي..

(٧)

تعلو وجهها ابتسامة هازئة وهي ترى الآن كيف كانت الأمور مختلفة تمامًا.

تهزأ من نفسها، ومن جامي، وحتى من رامبو الذي ظنّ أنه خرج بأقل الخسائر من تلك اللعبة المتشابكة. تهزأ من كل ذلك اللهاث ولا وصول. من الغايات وهي لا تكفّ تتباعد كلما ظنّ الواحد أنه شارف على بلوغها. لكنْ حتى هذا الارتكان المؤذي لفكرة قاسية لم يلبث أن تزعزع مع خاطر جديد؛ ماذا لو كان كل ما جرى ضروريًا حتى يجد الواحد منهم طريقه، راحته، حتى لو على جسر من الرهق؟ ألا يقال إنّ بداخل كل شر خيرًا؟

أعادتْ تأمّل كتبه، أغراضه، ورسالة همّ بكتابتها قبل أن تدركه ساعة السفر، فتركها فارغة إلا من مطلع يقول «قريبًا..». أيّ قريب يا ترى كان يأمله الرجل؟ من مكانها، على الكرسيّ ذاته عادتْ لابتسامتها الهازئة تلك، دون أن تنتبه أنها مرّتْ بهذا الطريق من قبل.

كان رامبو في قافلته المنهكة لا يترك أيّ سانحة توقّف دون أن يكتب رسالة. لا تهمّ الوجهة. كتب للجميع يُخبرهم أنه «قريبًا يعود». فعل ذلك مع عائلته في شارلفيل، وشركائه في عدن، وأصدقائه في مصوّع، وحتى إلى جامي في هرر. أمّا لماذا جامي وليس ألماز فهذا مما سيبين بعد حين.

بدا رامبو منشغلًا بما سيعقب رحلته الطويلة هذه رغم وجع ركبته المميت. انشغال يُشبه الذي كان عليه وهو في هرر يُجهّز لسفره عظيم الشأن. فقد توقّف عن دروس الأمهرية، لكنّه ظلّ يستقبل ألماز كل ليلة. وهو الأمر الذي وجدتْ فيه الفتاة بعض العزاء لتطرد هواجسها المؤرّقة. سعتْ لتنقل له حزنها بقرب سفره، لكنّ سعادته الطافحة كانت تُعيق رغبتها. كان متعجّلًا ومتلهّفًا للمغادرة، بحيث إذا انزوى فبين أوراقه وحساباته، أو يحمل آلة التصوير، دون أن يدعوها، يبحث عن مكان يُظهر صوره بشكل أجمل. وإذا تحدّث فعن سفره عظيم الشأن، وإذا استمع لشأن آخر حرَف الكلام وأعاده للوجهة التي يشتهي، فلم تملك أن تقطع عليه استغراقه، واحتفظتْ بحزنها لنفسها. بل ذهبتْ أبعد أحيانًا وهي تُبدي السرور لسروره وهو يُحصي عوائده المأمولة ما إن يفرغ من مهمته. وكم كان ابتهاجها كبيرًا وصادقًا هذه المرة، حين نحّى انشغاله، وبدأ يستعد لمقدِم المولد النبويّ، ومشاركة الأهالي الاحتفال. بدا مزهوًّا وهو يسألها عن رأيها حين اعتمر طاقية ووضع شالًا أخضر على كتفه، كان يُحبّبهما لهذه السانحة. لم تكن الطاقية تلائم رأسه، ومع هذا فقد أغدقتْ ألماز عليه الثناء، وهي تُخبره كم

يبدو وسيمًا. لكنّه مال عليها ليُذكّرها بضرورة ألا يراهما الناس معًا. كاد يطلب أن تتوقف عن زياراتها الليلية، لكنه عدل ما إن رأى ملامحها الفزعة من إشارته السريعة.

«كنتُ بدوري أبحث عن سبب تغيّري الكبير. لطالما كانت فكرتي عن نفسي شيئًا آخر، ولا أعرف لماذا غدوت هكذا، هشّة وضعيفة. أكره الوقت خارج وجودي معه، أو عنده بالأحرى. أيّ فكرة ابتعاد أصبحت تصيبني بالذعر. لم يحصل هذا معي قبلًا. ولكن يبدو أني كنتُ بحاجة للتجربة لأحكم على نفسي. التجربة فقط هي ما يضعنا في مواجهة أنفسنا وحقيقتها. السيئ في الأمر هو العجز عن السيطرة على الشعور، فلا تمثل حقيقتك واضحة أمام نفسك فقط، بل تتجاوز ذلك لتصبح مرئية لدى الآخرين. وأظنّ أنّ رامبو قد رأى إلى أيّ درجة وصل تعلقي به، وبلقاءاتنا الليلية. وقد جاهدتُ عبثًا لإخفاء الأمر وحتى ادّعاء خلافه. كانت عيناه تقولان دومًا إنه يعلم، وأنا كرهتُ نفسي بسبب هذا الانكشاف الفج، أمام رجل كان قادرًا -وعلى الدوام- على الوقوف بمسافة عني، عارفًا ما يفعله ومتى وكيف. لا يتزحزح قيد أنملة عن المكان الذي قرر أن يضع فيه نفسه، بحيادية ثابتة بينما أترنح أنا أمامه. كنتُ أشعر بمهانة لا يمكن وصفها. ولكني أتساءل، هل هنا يكمن الاختلاف بيننا وبين الرجال؟ أظنّ أن الرجل يعرف ما سيفعله منذ البداية، إنّه حتى يخمّن إلى أيّ حدّ سوف تصل مشاعره، ويحدّد النقطة التي لا يجب عليه تجاوزها. يضع مسارًا منذ البداية ويمشي فيه، يُكمل سفره في حياتك ويغادر. يعرف مسبقًا أنه سيغادر ومتى

سيغادر. لا يترك مكانًا للمفاجآت. ليس عنده ما يقدّمه خارج خطته الأولى. المرأة تنجرف، تكون في طريق وتأخذها المشاعر إلى طريق آخر، لا تُعطى نفسها على دفعات، حسب الضرورة أو الظروف. يوم تقرر أن تكون لرجل فستكون بكلّها. المرأة مخلوقة لتقع، ترى أن الوقوع جزء من طبيعتها، أنها خُلقت لتفعل ذلك، ولا ترى ضيرًا أو غضاضة فيه. هل كتبوا التضحية على المرأة ولم يكتبوها على الرجل فجاء تأريخها تأريخ ألم منذ تولد وحتى تموت؟ لكن بعد هذا كلّه، كيف يمكن أن تُحبّ المرأة؟ باعتدال واتزان وكرامة؟ ستُحبّ بمرض.. سيكون حبها مريضًا مثلها تمامًا. مثلي تمامًا.

الغريب في حكايتي، أنّ رجلي معي وليس معي، يقربني ويبعدني، يأخذني ويتركني، يحنو ويقسو، يمنحني ثم يفتكّ ما منحه، كل هذا في وقت واحد. وبقدر ما أشعر أني مرئية لديه تهجم عليّ أحيانا فكرة أنه لم يرني من الأصل، وأن ما عشته ما هو إلا مجرد وهم، وأني أسقطتُ على تصرفاته البريئة كثيرًا من المشاعر الكبيرة غير الموجودة سوى في عقلي. لا أعرف. أم تراه أحجم بعد أن سار صوبي، لأمر فعلته. هل يكون أرادني ثم انصرف؟ لا يمكنني خلق وهم من العدم ما لم يُشاركني رامبو ذلك منذ البداية».

هي الحافّة مجددًا، الغلالة تُحيط بالفتاة، وكلما انبجس ضوء بدّدته الحاجة إلى مكان آمن جميل. كلما أوشكتْ فكرة على إنقاذها جاهدتْ في طردها. هل تُعيد الفتاة من حيث لا تدري سيرة رامبو

مع فرلين؟ تلك الغشاوة اللذيذة من السهو، من الانشغال به عن الحياة. وذلك الاستغراق الموجع غالبًا دون رغبة في الفكاك منه. لكنّ رامبو تيّقظ في منتصف المشوار وسلك دربًا آخر، مرغمًا أو مختارًا، فيما بلغتْ ألماز نهاية الطريق حتى تنتبه، ولعلّها لم تفعل بعد.

استحالتْ هرر طوال اثني عشر يومًا مبخرة يضوع من نواحيها البخور، وتصدح مآذنها المئة بالمدائح، وتزدحم الحشود عند أضرحة الشيخ أوسعيد علي، والشيخ أبادر، والأمير نور، وآية عابدة، ترشّ ماء الورد، وحبّات الذرة، وتحشر النقود في الثقوب المعدنية التي تفصل الأضرحة عن العامة. بدا المولد وكأنه عيد لدرويش الجامع الكبير وحده، لفرط ما كان متطرفًا في ملابسه كثيرة الأسمال والقلائد، وحركته وملامحه الجادة. يغدو ويجيء لا يكفّ يوزّع تعليمات لا يستجيب لها أحد إلا على سبيل الطُرفة دون أن يمنعه ذلك من المضيّ في قيادته لحشد لا يلتفتُ إليه. هو بدوره لم يكن يلتفت لأحد أيضًا، ليس اليوم وحسب، فقد اعتاد طوال حياته أن يُمازح النساء في الشارع دون أن يناله أذى. لم يكن لأحد أن يأخذه على محمل الجدّ، وكان يعاملهم بالمثل.

انخرط رامبو بملئه فيما يجري؛ يزاحم المناكب ليلتئم في الصفّ، فيما يمدّ يده ليخطف حزمة قات مما يوزعه المحسنون الكثر على العُبّاد، وهو يسترق النظر بفضول ورهبة إلى ركن النساء يخطّون المصاحف والأذكار، وهم يغطون جانبًا من وجوههم ليظهر ما تبقى أدعى للانتباه. يُنشد بحبور ويهزّ رأسه يمينًا وشمالًا مغمض

العينين: «صلّوا عليه.. محمد نبينا.. صلّوا عليه.. محمد نبينا». لا يُثير ذلك استغراب أحد، فعبد ربه وإن لم ينطق بالشهادة ويحضر الجماعة، فقد ذهب بعيدًا في معرفة الدين. والناس كانوا بين ظانٍّ أنه يكتم إيمانه، وبين من يرجو ذلك. ألماز وحدها كانت تعرف أنّ رامبو إنما أراد ألا يبدو نافرًا في مدينة لا تقبل بذلك. كانت تعرف أيضًا أنّ المولد عيد لباعة القات ينتظرونه من عام إلى آخر، لكنها انشغلتْ عن بيعها بمراقبة رجلها المنغمس في الطقس إلى آخره، وقد تكوّر فكّه فتخرج الأحرف مبتورة: «صلّوا عليه.. محمد نبينا.. صلّوا عليه.. محمد نبينا». تُعيدها عن شرودها لكزة كلثوم جوارها فتنتظم هي الأخرى في صفّ النساء. تتسارع نبرة المنشد ومن ورائه الحشود، فيما القرع بالقباقب الخشبية يزداد ضراوة. وما بدا أنّه طقس جماعي يغدو مع الوقت حالة تخصّ الفرد وحده، فتتباين الصفوف وتتفكّك، وتعود الحناجر لتختار ما يلائمها من نبرة حادة أو خافتة، سريعة أو متمهّلة؛ «صلّوا عليه.. محمد نبينا.. صلّوا عليه.. محمد نبينا». ألماز وحدها لم تستطع أن تنفرد بنفسها فظلّت تراقب رامبو، وتتبع حركته، وتصغي لنبرته المتعالية فتميّزها عن باقي الضجيج، قبل أن تختفي بقية الأصوات، ويبقى صوته يرنّ في أذنها صعودًا وهبوطًا. مالتْ عليها كلثوم:

«على الأقل اصبري حتى تريه في الليل».

فزعتْ لافتضاح سرّها، وانتقل ذلك سريعًا إلى معدتها، غير أنّ صاحبتها أومأتْ لها مبتسمة وهي تُشير إلى مدخل الثوب عند

نحرها في إشارة لحفظ السرّ، فهدأتْ دون أن يُغادرها القلق تمامًا. اختلط عليها الأمر في فهم كلثوم؛ لا تكفّ تُقرّعها على اقترابها من الأوروبيّ الكافر، لكن ها هي تكاد تتواطأ معها بلذة خفيّة في اقتراف كلّ ما تُحذّر منه. يبدو أنّ البشر أحيانًا، ومن باب الرأفة ببعضهم، يتغاضون عن الخطايا. الخطأ ليس خطأً دائمًا، ففي بعض الأحيان قد يكون خلاصًا من صواب مميت. شاقٌّ على الإنسان أن يسير طوال حياته في طريق الصواب، لا يصل الواحد إذا سلك الطرق المستقيمة وحدها وعلى الدوام. يحتاج لأن يخطئ من وقت لآخر، بإرادته أو دونها. لأنه إنسان، لأن الخطأ يطرّي الحياة، والحياة الصائبة دون تبدّل هي حياة قاسية. ونفس تملك أن تأثم، خير من أخرى منقادة رغمًا عنها، أيًّا تكن الوجهة.

في لحظة بدا وكأنّ رامبو التفتَ صوب ألماز فالتقتْ أعينهما. كادتْ تبتسم لكنّه أشاح بوجهه. فعل ذلك دون تكلّف، وبالتلقائية نفسها التي التفتَ بها أول مرة. تمنّتْ لو كان متعمّدًا، لو شغل باله بتجنّبها، لكنّه بدا عاديًا ومسالمًا وحتى خيّرًا وهو يُنكّل بها، بحيث لا تملك أن تلومه.

لكن لوم رامبو جاء فيما بعد من وجهة أخرى، فقد تناهى إلى مسامع ألماز لغط يخصّ الرجل دون أن تستبين الأمر سوى أن غضبًا يسري بين أناس قصدوا بيته. ترددتْ في أن تترك بضاعتها وتذهب تتحرى الأمر، فتثير غضبه إذا ما رأها أمامه، أو تركن تنتظر من يأتيها بالخبر. لكنّها في النهاية لم تُطق أن تظلّ مكانها في السوق، فلحقتْ بالناس لكنّها انزوتْ تراقب من بعيد.

كان رامبو عالقًا أمام باب بيته، بين رعاة يحملون العصي، فيما آخرون يسعون لتخليصه قبل أن يناله أذى. من مكانها ذاك استطاعتْ تمييز كلام وسط الضجيج يتّهمه أنّه استغلّ انشغال الناس بالليلة الأخيرة من المولد وسمّم مواشيهم، فيما كان يُكرّر القسم تلو الآخر ألا علاقة له بالأمر، قبل أن يقول شيئًا لم تستطع سماعه فعمّ الصمت، ورأته يدخل إلى البيت للحظات ويخرج يحمل مصحفًا. وجلتْ الوجوه وهو ترقبه يحلف على القرآن بملء صوته. كان لذلك فعل السحر، فتفرّق عنه الغاضبون كأنّ شيئًا لم يكن، بل إن بعضهم استسمحه وهو يغادر. عادتْ سريعًا وهي تضحك تارة، وتتعجّب أخرى. لم تتوقف عند صدقه من كذبه، فهي على يقين أنه الفاعل، من حيث أراد إسكات نباح الكلاب. لكنّها لم تعرف حقًا ما إذا كان الناس يظنّونه مسلمًا أم يرجون حدوث ذلك في أيّ لحظة، قبل أن يذهب بها تفكيرها لتتساءل ما إذا كانوا سيعاملونها بالمثل لو شكّوا للحظة أنها ليست مسلمة.

في المساء كانت في انتظاره، فأخذ يحكي لها وهو يضحك كيف نجا بفعلته واستغفل الزنوج البُلدَاء. أخبرها كيف نفد صبره، حين وجد الكلاب وقد بالتْ على جلوده غير المدبوغة، وأنّ كل محاولات رفسها وترويعها لم تمنعها من إعادة الكرّة. لكنّه سرعان ما أبدى نقمته من أنّ الكلاب اللعينة بعد كل هذا، لا تزال قادرة على النباح وإقلاق راحته دون أن يتمكّن هذه المرة من فعل شيء في المقابل. لا تعرف ألماز كيف كان رامبو ينوي أن تختفي الكلاب من

المدينة وهي بالآلاف، في حين يترك لديه كلب واحد من الانزعاج ما تفعله البقية.

انكبّ على أوراقه بحماس. شعرتْ أنه يُعيد تصوير الموقف في رسالة لعائلته أو رفاقه. لم تشأ أن تصل إلى يقين في ذلك. كانت تلك هي المرة الأولى التي تؤثر طوعًا ألا تقرأ رسائله. كانت أيضًا المرة الأولى التي لا تتنظره فيها من تلقاء نفسها حتى يفرغ ويخلد للنوم، فغادرتْ وهو في ذروة انشغاله بالكتابة.

قد يبدو من نافلة القول هنا، أنّ ألماز كانت تتمنى لو ينتبه رامبو لمغادرتها فيستوقفها قبل أن تصل إلى الباب. لهذا ربما استغرقتْ وقتًا أطول من المعتاد حتى وصلته. صحيح أنها غادرتْ دون أن تلتفتْ، لكنّ كل شيء داخلها كان يلتفتُ بالفعل. كان قلبها ملتفتًا على الدوام.

تلقّتْ مجموعة جامي ما يفيد بتكثيف تحركاتها، فزادتْ المرات التي تسلّل فيها رفقة الأشتات إلى تخوم هرر، يرصد ويتابع، لكنّه وعلى خلاف المطلوب منه، كان حريصًا على أن يَشعر الهرريون بوجوده، فلا يغادر إلا وقد عمّ الفزع المدينة، فتُغلق الأبواب، وتعلو نداءات المساجد للنفير. حينها يمتلئ بالرضا، وهو يتخيّل وجه محبوبته المذعور، تبحث عن ملجأ من خطر داهم. لم يكن يرى في هرر غير ألماز التي لم تغادر خياله، بالغضب حينًا وبالشوق أحيانًا. ما إن يسترسل في استحضار وجهها برهافة، حتى يُوقظه الجرح الذي خلّفته وراءها، فيعود كيوم تركته؛ أسير رغبة في

الانتقام لا غير. لا يعلم إن كان سيثير انتباه قادته لو لم تمحى المسافة عنده بين هرر وفتاته، فيبدو متحرّقًا بجسارة لا تُضاهى، فيما هو عاشق خائب ليس إلا. كان يمكن لو لم يجرّب الصدّ، أن يكون الآن، يقضي وقتًا لا يتمنى أن تُعكّره ريح، ناهيك بحرب يعدّ لها بدأب.

لكنّه تعلّم في جيش مينيلك كيف يخشى على نفسه. بقدر ما كان يتبرّع بالأفكار لقادته، كان لا يضع نفسه في مواجهة الأذى. يُحسن تأليب المجموعة وتحفيزها، قبل أن يُبطيء من سيره فيضمن احتماءه بالأجساد من كل اتجاه. إذا جاء الأمر لمجموعة الاستطلاع بالعودة، يركض يُسدي لقائده نصائح التخويف، ومعها من يقوم بها. ثم يرتدّ بعيدًا يرقب بابتهاج كبير أفعاله بأيدي الآخرين.

الآن تخطر له أيامه الأخيرة الغاضبة في السهل، هل كان الناس يخشونه فعلًا أم أنّ كل شيء كان قد تغيّر بحيث لم يعودوا قادرين على الالتفات له. حمد الرب أنه لم يكن مضطرًا للتيقّن من الجواب حينها. لكنه الآن لن يقرّ حتى يتيقن من تصفية حسابه مع كل ما فات.

كانت تلك طريقته في تمضية الوقت في انتظار اللحظة التي يتشوّق لقدومها، ويرى أنّ القيادة تتباطأ أكثر مما يجب في الإغارة على هرر. لكنّه لم يكن يعرف أنّ قوى الأرض حينها تُشاركه تلك العجَلة؛ فمينيلك ملك شوا، أصبح على يقين أكثر من أي وقت مضى، أنّ لحظة مجده في توحيد الحبشة تحت حكمه قد حانت، وهو

يرى كيف أنّ صراعات الأوروبيين بدأتْ تتساقط ثمارها في حجره، حتى أنّ بريطانيا حين اغتاظتْ من رفض الحامية المصرية طلبها بمغادرة هرر، أرادتْ أن يكون العقاب بأن تُمكّنه من المدينة. كانت تأتيه الأسلحة من كل مكان، وكل طرف يعتقد أنه يدعم الشخص الذي يسهل الانقلاب عليه فيما بعد.

ألماز بدورها لم تكن بعيدة عن أجواء الحرب لكن على طريقتها. فلم يكن يشغلها أثناء وداع رامبو سوى الخوف عليه من الطريق، أيُّ طريق قد يُخبئ له الأذى، طالما أنها لا تعرف وجهته النهائية. سألته مرة، فردّ بجواب غائم، ثم كرّرت السؤال، فاكتفى بابتسامة فاترة، لكنه في المرة الثالثة لم يُكلّف نفسه عناء النظر إليها.

حشد الكثير من الرجال والماشية، حتى غدتْ القافلة الخالية من أيّ مؤن حديث الناس في هرر، فلم يسبق أن خرج تاجر من المدينة دون أن يملأ مخازنه بالبنّ أو القات أو البهارات. لكنّ رامبو فعلها، وهو ضائق الصدر بأيّ تعجّب يقابله، حتى كفّ الهرريون عن سؤاله. حين استوى على حصانه، كان ما يزال يصرخ على عمّاله ليحسنوا تثبيت آلة التصوير على أحد الجِمال، فيما ألماز تقف إلى جوار شجرة، تنتظر أن يلتفت إليها.

كان ذلك آخر ما أخبرته به البارحة قبل أن تُغادر بيته. كم بدا عسيرًا ذلك الترقّب وهي تنشد لحظة مؤاتية لتقطع عليه استرسال الكتابة وتُخبره أنها ستودّعه من مكانها قرب الشجرة الكبيرة في الزاوية المقابلة للبيت. بدا ذلك عسيرًا لأنها لم تشأ أن تقول كلامها

مرتين. لذا ما إن غفل عن قلمه لبرهة والتفت ناحيتها حتى نطقتْ بذلك بكل ما أمكنها من وضوح ومباشرة. ولكم كانتْ فرحتها حين هزّ رأسه موافقًا، وهي التي ظنّت أنه قد يتعذّر بالخشية من الناس.

لكنّه لم يلتفتْ ناحيتها بعد. ما يزال منشغلًا بوجوب تقييد الصناديق الفارغة جيدًا على ظهور الجمال، والتيقُّن من وجود ما يكفي من الماء حتى أول نبع في الطريق، وإلزام الحرّاس بألا يسهوا عن إحاطة حصانه طوال الرحلة. ثم صمت قليلًا، كأنه تذكّر شيئًا، فسارعتْ ألماز إلى التقدم خطوة وإظهار نفسها أكثر. كانت على يقين أنّ لحظتها جاءتْ. زاد يقينها حين رأته يلتفت يبحث عن شيء، وما إن لمح صبيًا يعرفه حتى أوصاه أن يُطعم القطط في غيابه، قبل أن يلكز حصانه، ويغادر وهو يُلوّح للهررين مودِّعًا وطالبًا منهم الدعاء بالتوفيق والربح الوفير.

ستنتبه ألماز لاحقًا، كيف أنّ رغبتها في صورة مشتركة معه قد تبدّدتْ إلى الأبد بمجرد رحيله. تردّدت أكثر من مرة في الطلب منه بشكل مباشر. لكنّها تمنّتْ أن يُبادر هو فيكتمل مرادها. تفقد الرغبات قيمتها حين نُلحّ في طلبها، حين نطلبها بالأساس، فتجيء منقوصة باهتة، وقد كانت أقصى أمانينا.

ستُغمضين عينيكِ، لكيلا تري، عبر الزجاج
تكشيرة الظلال المسائية
هذه المسوخ الشرسة، هذه الدهماء
من شياطين سود وذئاب سود

(٨)

حين ستدكّ مدفعية مينيليك أسوار هرر، ستكون ألماز تركض بكل طاقتها لتجد لها ملجأ في الخنادق التي جهزها الأهالي لهذا الغرض. قلبها الفزع لم ينسَ المرور بغرفة كلثوم لكنّها لم تجدها.

ستحشر نفسها بين نسوة لا تبين ملامحنّ في حلكة الليل. حتى في هذه اللحظة الفارقة، سيكون الهرريون قد انتبهوا لتفصيل منحوه جلّ اهتمامهم؛ فللنساء خنادق ينبغي أن تكون بعيدة بما يكفي عن خنادق الرجال. ما إن قرّت الفتاة في مكانها حتى حمدتْ الرب على ذلك، فقد أنساها الخوف أن تضع غطاء رأسها، فظلّت، رغم العتمة، محنيّة الرأس تضعه بين ركبتيها حينًا، أو تغطّي جبينها بكفّها حين ترفعه، وهي لا تكفّ تسحب غرتها لتداري الوشم.

في تلك اللحظة الفارقة، وفيما يشتد القصف، لن يخطر ببال ألماز، وهي تقطر عرقًا من الفزع، والالتصاق بالأجساد المرتجفة، وخشية افتضاح أمرها، والقلق على كلثوم، وألم معدتها، لن يخطر ببالها أنّ رامبو الذي قضتْ الليالي تتمنى أن يسلم من عثرات

الطريق، أيّ طريق، كان مشاركًا فيما يجري. صحيح أنه لم يحمل السلاح ضمن جيش مينيليك، لكنّ سفره عظيم الشأن ذاك، لم يكن إلا لبيع السلاح للغزاة.

يصعب على الفتاة تخيّل ذلك، وقد مرّ الوقت ثقيلًا عليها في غياب رامبو، فكانت نهارات السوق لا تخلو من مزاج متعكّر يُوقعها في متاعب مع زبائنها، خاصة حين تناهى إليها أنّ الحامية المصرية انقسمتْ على نفسها، فاستجاب غالبها لأوامر الخديوي بالانسحاب، فيما اختارتْ فئة أن تنحاز إلى إخوة الدين وتبقى في هرر دفاعًا عنها. لم تكن تقوى على إكمال النهار في السوق فتقفل راجعة إلى بيتها. جرّبتْ مرة أن تتوقّف عند العجوز بائعة القهوة كما كان يفعل رامبو، لكنها ضاقت بحركتها الفاترة، وأحجمت عن ذلك دون أن يفوتها أن تنتبه لأمر بدا غريبًا. كانت العجوز تُمضّي النهار وهي ترصّ الفناجين قرب بعضها ثم تبدأ في ملئها كلها، لتشرب في النهاية فنجانها الوحيد. بدا وكأنها تُحيط نفسها برفقة متوهّمة في غياب الناس.

نهار ألماز على قسوته كان أهون من ليلها الذي استحال قطعًا من العذاب، بعد أن تكون قد اختلتْ بنفسها ولم يعد من مكان تتسلّل إليه هربًا من أفكارها. صحيح أنّ أيامها الأخيرة في وجود الرجل لم تعد كأول الأمر، لكنّها، بالنظر لما تقاسيه الآن، كانت في نعيم مقيم.

انتبهتْ كيف أنها استغنتْ برامبو عن بقية الناس، وبسويعات

الليل الصامتة، عن كل الضجيج الذي تحمله الأيام في هرر. انتبهتْ، أنها لم تعد كافية بذاتها، وأنّ اكتمالها اقترن بوجوده، مهما بدا منقوصًا ومؤذيًا أحيانًا. تضيق بذهنها الذي يُسفر لها بوضوح عن ورطة لا تكفّ تغوص فيها دون أدنى رغبة في النجاة، وقد غدتْ أكثر كلفة كلما مضى الوقت. كانت كمن قطع المشوار إلى منتصفه، فتساوى الطريق بين المواصلة أو العودة، فلم يجد بدًّا من إكمال رهقه. كانت كمن يحفر بدأب بحثًا عن مراد، وكلما عنّ له التوقف، تذكّر تعبه الفائت كله، فعاد للحفر بدأب أكبر. تحفر ألماز بيديها، وبقلبها، وبعقلها إذا لزم الأمر، دون أن تلتفت خلفها إلا ليُعينها على مواصلة الحفر.

رامبو أيضًا، لم يكن ليتخيّل ما هو مقبل عليه، لكن بطريقة مغايرة. فما إن غادر سور جُغل، وترك المدينة خلفه حتى عاد يضع حساباته من جديد، ويبتهج لكل رقم يضيفه بعد سهو سابق. ابتهاجه بالأساس كان لقدرته على تمرير خديعته على الهرريين بأسرهم، وهم الذين ما كانوا ليسمحوا له بالمغادرة لو علموا وجهته.

لكنّ الخديعة كانت في انتظاره آخر الأمر؛ فما إن جمع العتاد وملأ خزانه عن آخره، بعد أن التقى مورّدي السلاح في منتصف الطريق، وشرع يقطع الصحراء، حتى تصدّى له الدناكل وحجزوه في تاجورة. لم يكن يخطر ببال رامبو أنّ مكوثه مأسورًا رفقة عتاده سيطول حتى يُقارب العام، قضّاه في كرب انتظارٍ لم يشأ أن ينتهي. ولم يُهوّن عليه مصابه، ما إن سمحوا له بالمرور، إلا بضاعته التي لم

تُمسّ، وهو الذي ينوي بيع كلّ بندقية لديه بأربعين فرنكًا، وقد كان اشتراها مستعملة من تجّار أوروبيين بسبعة فرنكات فقط. لم تكن هذه فكرته بالأساس، فقد شاعتْ حتى بلغته، فسارع يسير في نفس الطريق اللامع ذهبًا وأرباحًا، دون أن يخطر له أن ثمة شيء يتغيّر عادة حين يكون الطريق مغريًا لأفواج قبله.

قصد أنكوبر عاصمة شوا من فوره، ووصلها عقب شهرين، لكنّ مينيليك كان قد غادرها إلى أنتوتو دون أن يخطر له إعلام رامبو بذلك، فتكبّدتْ القافلة عناء اللحاق بالمشتري إلى وجهته الجديدة، مع ما يعنيه ذلك من نفقات إضافية.

ذلك لم يكن كل شيء، فالتاجر الذي سرعان ما أعاد حساباته في الطريق، بحيث رفع من أسعاره مجددًا ليحفظ أرباحه الصافية بوغت بالملك يعرض ثمنًا هو من الزهد بحيث بدا وكأنه حاز العتاد دون مقابل، قبل أن يُطالبه بأموال في عهدة شريكه القديم، ويُحمّله كلفًا من هنا وهناك. لم يكن بمقدور رامبو أن يرفض وهو في حضرة مينيليك وبين جيشه، فترك الذخائر وعاد يلعن الملك وحظه في آن معًا.

بقدر ما كان رامبو موجوعًا من خسارته الفادحة، وتبدّد أحلام الثراء السريع، استقرّ في يقينه أنه لم يكن يومًا أهلًا للتجارة؛ فشراكته في بيع الحبوب انتهت إلى خصام وافتراق، والبنّ الذي يتلذّذ به لم يُطاوعه ويعمر جيوبه بالتالرات كما كان يتمنّى. وها هي تجارة السلاح التي كان كل شيء مؤاتيًا لتكون طوق نجاته من الشقاء

الذي يلازمه، ترتدّ كحجر ضخم يكاد يقتله. لكنّ الرجل رغم كل ذلك، دفع ما عليه إلى عمّاله وحرسه، وأدّى وسط هذا الخراب دَينًا قديمًا عن شركائه، ثم شرح ذلك في رسالة «**يطرون ويتملّقون حتى يصفرّ وجهي خجلًا. مهما يكن، ما دام هؤلاء المساكين صادقين، تأثرت لهم ودفعت**».

بدا غريبًا أن تكون هذه هي نهاية علاقة رامبو بالسلاح، وهو الذي ما كفّ يُحيط نفسه به ما استطاع. فقبل عقد من قدومه إلى هرر كان قد تطوّع في الحرس الوطني في دوي، وهو يُمنّي النفس بالحصول على بندقية، وتجربة التصويب كما حلم منذ الطفولة، حين كان يرى والده يمتشق سلاحه ويُغادر إلى ثكنته. لكنّ تلك الأحلام تبخّرتْ حين لم يُسمح للمتطوعين إلا بحمل الهراوات، ففقد التطوّع غايته لدى الشاب. ومع هذا لم يسكت، بل احتجّ وتظاهر وهو يحمل مكنسة خشبية، قبل أن يكتب عريضة إلى محافظ المدينة طالب فيها بتسليم المتطوعين السلاح بأيّ ثمن. هذه الفكرة تكرّرت ست مرات في العريضة التي استطاع أن يُقنع زملائه بالتوقيع عليها.

وحين زار لندن، خطر له شراء سيف ليبارز على طريقة ألمانٍ شاهدهم حين زار بلدهم. وما إن غادر إلى روتردام حتى راودته الأحلام القديمة فتطوّع في الفيلق الأجنبي المغادر إلى باتافيا. وفي لارنكا التي سيغادرها فيما بعد هربًا من جريمة، كان يتحرّق في انتظار خنجر أوصى به، حتى أنه كتب معاتبًا يصف انتظاره بالأمر المعذّب. أما عمله الشاقّ في مقلع الصخور في قبرص، فلم يجد

معه من تسلية، وهو الذي كان ينام في الثكنات المجاورة للبحر، إلا انتظار مغادرة العاملين، والاستلقاء على الرمل، وتفجير البارود الذي يستخدمه لتفتيت الصخور. ولم يمنعه من عادته تلك إلا أنّه كاد يودي بحياة عمّال لم يكونوا قد غادروا المقلع بعد.

لكن هل كان رامبو فعلًا ذاهبًا بكلّيته لهذه الحياة أم مترددًا حيالها؟ فالصبي الذي كتب في العاشرة من عمره «**كان أبي ضابطًا في جيش الملك**»، وكان يحلم بقيادة الجيوش، لم يكن يتطوّع في الجندية إلا ليهرب منها، ولم يكن من مآل لكل محاولات الانضمام إلى الجيش الإسباني أو الأمريكي أو الهولندي إلا الفشل. هل كان في كل ذلك، إنما يُحاكي أباه سواء في تطوّعه، أو في فراره؟

هل لهذا ستشهد أخته إيزابيل موقفًا تعجز عن تفسيره حينها؟ إذ وبينما كان في رحلته الأخيرة، ينتظر القطار الذي سيُقلّه من باريس إلى ليون ومنها إلى مرسيليا، مبتور الساق، غارقًا في الحمّى، لم يُغادره أثر المخدّر، رأى ضابطًا في بدلته العسكرية، فاجتاحته نوبة ضحك غريب ومتواصل. ستكتب إيزابيل عن هذه الحادثة، دون أن تكون قادرة على التمييز ما إذا كان رامبو، يسخر من الضابط، أم من أبيه، أم من أحلامه الضائعة، أم من كل ذلك معًا.

جامي في المقابل كان يعيش أكثر أيامه ابتهاجًا وقد تبّلغ باكتمال التأهب للهجوم على هرر. حانتْ لحظته أخيرًا. لن يكتفي هذه المرة بالمراقبة وإثارة الذعر، بل سيكون ومجموعته رأس الرمح الذي سيضرب المدينة. يعرف جامي تمامًا، وعلى خلاف مَن معه،

أنهم في نظر مينيليك ليسوا أكثر من كاسحة تُمهّد الطريق للجيش، ولا يُضير ما يُصيبها أثناء ذلك. يعرف أنهم، وكما كانوا أشتاتًا في السهل، سيظلون كذلك أينما ذهبوا. ومع هذا لم يجد غضاضة في أن يُحقّق مراده بينما يسعى في مراد الآخرين. لكنه وإن سبق رفاقه في رؤية ذلك، فقد ماثلهم في أمر آخر. فما إن تلقّتْ المجموعة الأمر بالهجوم على هرر، حتى وجد الجميع أنفسهم منخرطين في مهمة ملحّة. فقد كان يمكن قصد هرر من طرق عدة، لكنّ المجموعة تواطأت على طريق السهل، حيث ينتظرهم ثأر قديم. ولم ينتبه أحد أنّ هذا التواطؤ لم يأتِ من تلقاء نفسه، بل زرعه جامي بصبر دؤوب بحيث بدا في النهاية وكأنّ كل شخص قادته نفسه لهذا القرار.

كان الأهالي في السهل يشاركون الهرريين الخوف من الحرب دون أن يشعروا أنهم طرف أصيل فيها. كان ثمة شيء يبعث في نفوسهم طمأنينة المتفرج، إلا من أضرار قد تعبر بهم، فخصومة مينيليك مع هرر غدتْ شخصية منذ أن عرض على أميرها الانضواء تحت حكم شوا، فما كان من الأمير إلا تجاهل الطلب بل ودعوة الملك إلى الإسلام ليتبع ديانة رابع المدن المقدسة. ثم مما قاد إلى تمكين تلك الطمأنينة في قلوب أهالي السهل وعدم زعزعتها، أنهم ظلوا إلى لحظة فنائهم يجهلون أنّ الأشتات باتوا واجهة الجيش الغازي، وأنّ وجهتهم وإن كانت هرر، فإنها لن تمرّ إليها إلا على جماجمهم، وقد كان.

مرة أخرى، يوغل جامي في غايته، فيبدو دون عناء، متفانيًا في غاية الملك. وكما كلّ مرة، دون أن يخسر.

فما إن عرف أمير هرر بما لحق بأهل السهل حتى قرّر أن يلاقي طليعة جيش مينيليك خارج سور جُغل، ويستفرد بأعدادها القليلة. كان يُمكن لهذه الحيلة أن تنجح لو أنه استفرد بفرقة جامي وحدها في شالينكو التي اختارها الأمير بعناية لأنها كانت حسنة الطالع على الدوام. كان ذلك سينجح حتمًا؛ القضاء على واجهة الجيش، وبثّ الرعب في نفوس بقيته، وإعلاء اليقين بالنصر في نفوس الهرريين. لكنّ الوقت الذي قضاه جامي في التلذذ بمشاهدة تقطيع أوصال أسياده السابقين في السهل، وبلوغ ذلك مينيليك، جعل الملك يُعجّل من زحفه استعجالًا للظفر بالمدينة، فلحق بطليعته في شالينكو، وقد قُتل أفرادها وتفرّق شملهم. بدا غريبًا أنّ جامي اكتفى بمراقبة كلّ ذلك. خطر له أن يمدّ يده لسلاحه فينسف رأس أحدهم، أو يفقأ عينه، لكنّه عجز. أراد ذلك من كلّ قلبه، لكنّ جسده كان يرتعش وهو يرى من المنزوى الذي لجأ إليه الموت في كل ناحية. وكم حمد الرب على صواب رأيه حين باغتهم أمير هرر بفرقة تفوقهم عددًا أعملتْ فيهم أسلحتها، قبل أن تأتي نجدة الملك.

لم يكد الهرريون ينتهون من الموقعة، ويركنون للراحة حتى وجدوا أمامهم ثلاثين ألف مقاتل بكامل عتادهم، فيما لم يكن يملكون إلا بضع مئات من بنادق الريمنغتون وسان إيتيني، فيما البقية تُحارب بالسكاكين. فانتهتْ المعركة لصالح مينيلك قبل أن تبدأ.

فرّ الأمير مع من ظلّ من أتباعه حيًّا إلى وجهة غير معلومة. قُتل أفراد الحامية المصرية الذين كانوا قد قرروا البقاء في هرر، ومعهم

صوماليون وأتراك وسودانيون، ولم تصمد الحراسة الهزيلة على البوابات أمام دكّ المدفعية.

هي نفس المدفعية التي ترجو ألماز الآن ألا تُصيب خندقها فتُحيلها ومن معها إلى أشلاء لا يمكن جمعها. لم يعد يشغلها إخفاء الصليب الذي يتوسّط جبينها ورسغها، ولم يكن لأحد أن يتوقّف عنده أصلًا، وقد بلغ الخوف بالجميع مبلغه. لكن من كان يظنّ أنّ القدر يُخبىء لألماز مآلًا ما كان ليحدث لولا أنها وفي غمرة بحثها عن النجاة خرجتْ حاسرة.

كان رامبو لا يزال في عدن التي قصدها بعد فشل مهمته في أنتوتو، يترصّد أخبار هرر بانزعاج وضيق صدر. يُصيبه الحرّ بالجنون، ويُفاقم ألم ركبته من شعوره بالإنهاك. يُمضّي الوقت في كتابة الرسائل إلى أمه، يحكي لها عن تجارته التي أصابها البوار قبل أن تبدأ. كانت تلك لحظة سانحة لتحضر ألماز في كتاباته إلى أهله. كان يكفي مثلًا، وهو يحكي لهم عمّا ينتظر هرر، أن يُبدي رغبته في معرفة مصير الفتاة التي تركها خلفه هناك. لكنه لم يفعل. كانت فرصة أن تأتي ألماز في سياق الخوف على بيته أو قططه. لكنه لم يفعل.

لم يكن معلومًا على وجه الدقة ما إذا كان رامبو قد أحسّ حينها بالقلق على ألماز حتى وإن لم يكتب عنها. سيظلّ هذا في طيّ الغيب، حتى بعد أن وقفتْ الفتاة في وجهه، ونظرتْ في عينيه لتسأله دون مواربة، إن كان قد أحسّ بالقلق عليها، فيما المدينة تُحرق. لكنّها لن تسأله لمَ فوّت فرصة أن يذكرها لأهله في تلك اللحظة الحالكة.

لن تفعل، إما لأنّ أوان السؤال قد فات، وإما لأنها ستكون نالت الجواب دون أن تُبادر بطلبه. أو لأنّ ألماز حينها ستكون قد تعلّمت، ألا تخطو الخطوة الثانية، ولا تزال الأولى عالقة في مكانها.

مع طلوع النهار كانت روائح الهزيمة قد شاعتْ في هرر. لم يعد مجديًا البقاء في الخنادق، فخرج الناس يركضون على غير هدى. لم تدرِ ألماز ما تفعل، فوقفتْ في مكانها ذاهلة. ضاقتْ الطرقات بالناس وهم يهيمون بحثًا عن ملجأ. فلم تكن بيوت الهررين مهيأة للاختباء بأسوارها الواطئة وباحاتها المكشوفة. هذه المدينة التي ظلّتْ عصية من الخارج، كانت شديدة الانكشاف من داخلها. لعلّها وفرة الطمأنينة أو الغرور، أو الاثنين معًا. تمنّتْ في هذه اللحظة أن تظهر لها كلثوم كما فعلتْ أول مرة، وتأخذها من يدها لمكان آمن لا يعرفه سواها، لكنها لم تفعل.

بدا الناس وكأنهم يفكرون بعقل واحد، إذ سارعوا كمن يُلبّي نداءً للالتجاء بالأضرحة وقبور الأولياء. عمّت الفوضى على مداخل القبور واستحالتْ قتالًا للظفر بالحماية قبل الآخرين. كانتْ ألماز تشاهد كل ذلك من مكانها فلا يزيدها إلا تشوّشًا وحيرة. رأتْ عجوزًا أمامها يجلس القرفصاء على زاوية شارع، يُطوّق نفسه بقماش أبيض مائل إلى الصُفرة، يلتفّ من ظهره ليلمّ ركبتيه إلى صدره. كان يُصوّب بصره إلى الأرض في ذهول، فيما يده لا تكفّ تُقلّب في مسبحة عتيقة ببطء لا يلائم الحال. بدا عاجزًا عن الحركة، أو غير معنيّ بها أصلًا، بدا خارج ما يحدث، في عالمٍ وحده. ليتها

تستطيع نجدته، صرختْ فيه مرة وأكثر دون جدوى. كان منقادًا ومستسلمًا. خطر لها أنه لن يمرّ وقت قبل أن يأتي من يقطف رأسه بضربة واحدة.

مرّت أمامها أمّ الخير، فتوقفتْ تنهرها لتأخرها في الاختباء. لكنّها ما إن أتمّتْ كلامها حتى انتبهتْ للرأس الحاسر والصليب يتوسط جبين الفتاة بعد أن ارتدّتْ غرّة الرأس الأشعث للوراء. لم تستطع ألماز حينها أن تُميّز ما اعترى وجه سيدتها السابقة؛ بدا مزيجًا من الخيبة والغضب والشعور بالخيانة، وربما الحزن. بدا أنها على وشك أن تنطق، لكنّ شيئًا ألجمها، فغادرتْ مسرعة إلى مخبئها. ستظلّ ألماز لأعوام تتذكر وجه أمّ الخير، ونظرتها العصية على التفسير. تمنّتْ لو أنها استسمحتها دون أن تعرف على أيّ ذنب. يُقيّدنا المحسنون ببذلهم حتى نظنّ أنفسنا السبب وراء كل سوء يُصيبهم.

حين انهارتْ البوابات، دخل جيش مينيليك كالجراد، وكانت هرر حينها في أوجّ اخضرارها.

لأيام، غرقتْ المدينة في دماء أهلها. مات خلق كثير دون أن ينجو الأحياء. كان الجندي يُطيل في عذاب ضحيته قبل قتله؛ شهد الهرريّ ذبح جاره قبل أن يأتي دوره. قُطعتْ أثداء النساء وتُركوا ينزفن في الطرقات. الازدحام على الأضرحة بقي على حاله، لكن بعد أن استحال الناس جثثًا بعضها فوق بعض. الذين نجوا، كان غالبهم مقطّع الأطراف، أو مفقوء الأعين. كل هذا كان يحدث

دون أن تبرح ألماز مكانها. كانت معقودة الأقدام واللسان. أخرسها الموت وهو يُحيط بها من كل جانب. ولما بدا أنه التفتَ صوبها كانت قد بلغت تمام التسليم، واستجابتْ لقدرها. لكنّ الجندي الذي أقبل نحوها وشهوة القتل تطفر من وجهه، تراجع ما إن لمح الصليب في جبينها، ثم ما لبث أن صرخ فيها وهو يستغرب بقاءها في مكانها عرضة للهلاك.

ستتذكر بعد ذلك، كيف كان الجندي وهو يقودها لمكان آمن يدوس على الجثث ويلعنها في آن معًا، قبل أن يتباهى بالرؤوس التي أطارها والبطون التي بقرها. ستتذكر كيف كانت تتبعه على نفس الطريق التي شقّها فوق الأجساد، لكن مع فارق أنها كانت تدوس على أناس تعرفهم؛ مؤذنٌ لا تُطيقه لفرط ما كان يُطالعها بغلظة في طريقه لمسجده، ودرويش الجامع الكبير بأسماله وقلائده، والجسد الذي تعرف صاحبته جيدًا، بملامح وجهها الطفولية، والسنّ الذهبي في مقدم فكّها البارز، وأساور يدها العاجية؛ صاحبتها ورفيقتها في السوق، كلثوم التي فتحتْ لها أبواب هرر حين جاءتها عزلاء خائفة أول مرة.

«أشياء كثيرة عشتها كغيري، وكغيري نسيتها، ولكن ثمة ما بقي محفورًا ليس على جلدي كهذه الأوشام، بل في الداخل، في نقطة قصيّة في قلبي. كلثوم صديقتي الوحيدة، كانت واحدة ممن لقوا حتفهم يومها، ولكنّ موتها على وقعه المزلزل غدا على هامش ما آلمني، من يتخيّل ذلك! ما الذي يؤلم أكثر من موتها؟ إنّه التخلي

عنها وهي جثة هامدة بلا حول ولا قوة. العجز عن توديعها أو البكاء فوقها، بل أكثر من ذلك، لقد حدث أكثر من ذلك.

أردتُ على الأقل أن أجثو على ركبتيّ وألمس وجهها لآخر مرّة، أن أقول شيئًا في أذنها، أن أمسح على شعرها، وأطلب منها ألا تنساني حيث هي ذاهبة، أو أن أجعلها تعلم على الأقل أني لن أنسى كل الذي فعلته لي عندما جئت هنا غريبة هاربة خائفة، لا أعلم إلى أين، وهل إذا حلّ الليل سأجد مبيتًا، وهل عندما أجوع سأجد ولو قطعة خبز أسدّ بها حاجتي، لا أعرف متى سيكتشفون أمري ويطردوني شر طردة أو حتى يقتلوني. كنت ضائعة هائمة على وجهي عندما تلقفتني هذه الفتاة، وقررت بلا سبب أن تسندني، وفي لحظة واحدة أوجدت لي السكن والعمل بل والصحبة الجميلة. هنالك أناس هكذا العطاء عندهم جزء من تكوينهم، لا يجتهد الواحد منهم ليعطي، بتلقائية يفعل ذلك، لأنه لا يعرف كيف لا يفعل، وكأن نواة وجوده تمثلت في المنح، وسعادته كامنة في مساعدة الآخرين، والمقابل هو سعادتهم، إذا ابتسموا فقد بلغ مرماه، وهذا غريب، غريب. أما لماذا غريب، فلأنّ هذه الحياة نفسها، التي يوجد فيها هؤلاء، فيها الآخرون، الذين تشقيهم سعادة غيرهم، ولو قدروا على قطع الهواء عنهم لقطعوه، وفيها الذين على عكس المنح جلّ مواهبهم تتجلّى في الأخذ، الأخذ فقط، وكلما أعطيتهم، طالبوك بالمزيد، دون شفقة أو تفكير، يأكلون قلبك وروحك، ثم جسمك، عمرك، أحلامك، جهدك، كل ما تصل له أيديهم. وحالما ينتهون منك، عندما تفرغ تمامًا، وتصبح مجوّفًا خاويًا، يكتشفون أن

لا ضرورة لك في حياتهم بعد الآن. الحياة فيها كل شيء. وكلثوم كانت من النوع الأول، ولكن ها هي ذي أمامي، منبطحة على التراب المختلط بدمها، مثل دابة مذبوحة. كدتُ أصرخ لكنّ الجندي التفتَ إليّ في نفس اللحظة التي أردتُ فيها تجنّب الدوس عليها، فلم أجد بدًّا من فعل ذلك كما فعل تمامًا من قبلي. لكني على خلافه، كنت أدوس على قلبي بكل القسوة الممكنة.

صليبي أنقذني من الموت، لكن ما الذي سينقذني مما أكابده من عذاب ضمير الآن، من سينقذني من قدمي التي رفست جثة امرأة أخذت بيدي وأحبتني بصدق، فقط من أجل أن أنجو. هل نجوتِ على الإطلاق يا ألماز؟ هل نجوتِ حقا؟ وشبح كلثوم المسكينة يلاحقك ليلا نهار! أسأل نفسي كالمجنونة يوميًّا، عارفة الإجابة تمامًا. بالموت نعرف ما كان يتوجّب علينا العيش من أجله».

لا تعرف ألماز إن كانت كلثوم قد عاشت الحياة التي أرادتْ أم تلك التي أرادها لها الآخرون. إن كانت راضية بورعها أم مضطرة له وهي تتشوّف لكل الخطايا كي تُصبح نفسها. لكنها تعرف أنّ كلثوم كفّرت عن كل الذنوب التي اقترفتها وتلك التي لم تقترفها.

حين ستهدأ الحرائق في هرر، ويُغادر مينيليك بجيشه بعد أن وضع عليها رايته. سيبدأ ناجون في الخروج من مخابئهم، ليكتشفوا هول ما جرى. وستخرج ألماز معهم، لتجد جامي في وجهها.

حياتي الأبدية التي لم تُكتب
ولم تُغنّ!

(٩)

بدا وكأنها سمعتْ طرقًا على الباب.

غادرتْ شرودها وأصختْ السمع. كانت ما تزال على جلستها تلك على كرسيّ رامبو، تستعيد حكاية خاطفة لم تكد تبدأ حتى انتهتْ. تُحيط بها كتبه وأقلامه لتُخبرها أنها لم تكن تحلم، وأنها عاشتْ كل أيامها تلك بالفعل. يبدو غريبًا كيف يتكثّف العمر إلى حكاية عجلى تختصر الفرح والألم واليقين، ثم ما إن تعبر حتى يبدو كل ذلك غائمًا ولا يمكن الجزم بوقوعه.

هل حقًا غادرتْ السهل إلى حلمها في هرر؟ هل انخرطتْ سريعًا في المكان لتغدو منه وفيه بكلّيتها؟ وهل أخرجها الوافد الأوروبيّ من عالمها الصغير إلى عالمه، ثم لم تستطع العودة عنه؟ وهل كان كلّ ذلك في حال صحّ، خيارها الذي سعتْ إليه، أم انقادتْ له دون قدرة على الفكاك؟

يتجدّد الطرق على الباب. هذه المرة سمعته بوضوح، لكنّها أرادتْ أن تتريّث قليلًا دون أن تفهم السبب، ثم سرعان ما ابتسمتْ

حين انتبهتْ أنّها تريد التثبّت من مدى رغبة الطارق في أن يُفتح له الباب. بدا وكأنها ما تزال واقعة تحت تأثير تلك الأشياء التي تأتي دون أن تكون راغبة في ذلك تمامًا. هل أصبحتْ ترى نفسها في الأشياء من حولها؟

حين طُرق الباب مجددًا، همّتْ بالقيام، وقفتْ بالفعل. لكنّها عدلتْ سريعًا، وعادتْ لجلستها. هذه المرة خطر لها أن تحظى بفرصة الصدّ دون أن تشرح أسبابها، ودون أن تفهمها هي ابتداء. ثمة لذة في أن نكون مالكي أمرنا، حتى وإن لم يفضِ ذلك إلى شيء. حين غاب الطارق عادتْ إلى استغراقها، ولم تكن قد فارقته قط.

ما لا تعلمه ألماز، أنّ هذا الطرق على باب رامبو سيزداد ويستمر لأعوام بعد ذلك، من قِبل أفواج تفد على هرر لتبحث عن الكنز المخبوء؛ فقد شاع أنّ القصائد لم يتوقّف جريانها أبدًا، وأنّ انكباب الرجل على الكتابة كل يوم لم يكن بغرض التراسل فقط. ما لا تعلمه ألماز، أنّ تجارة ستقوم على إرث رامبو المزعوم، مع كل مرة تُكتشف صحائف هنا أو هناك في هرر، قبل أن يتبيّن زيفها، بحيث غدتْ الحكاية غائمة لا يملك أحد الحسم فيها.

لكنّ ما تراه ألماز الآن أمامها ما إن غادرتْ مخبأها بعد الحرب، بالغ الوضوح.

«انتهت الحرب. اخضرار هرر استحال هشيمًا، والشابّ فارع القامة بسمرته الصافية، يقف أمامي. ألاحظ أنه ما يزال يحتفظ بوسامته رغم لطخات الطين الملتصقة بوجهه. إنه جامي، ولا أحد

غيره! لم أتوقع رؤيته لذلك شعرت بما يشبه الصدمة، وأعتقد أن اضطرابي كان بائنًا له. بدا لي أنّ وجوده في حياتي مرتبط بالأماكن الحزينة والبائسة. شعرتُ أنّ الزمن عاد بي فجأة إلى ما قبل هرر، إلى حياة السهل، دون أن أكون قادرة على الجزم هل لذلك معنى أم لا. بدا جامي مرتبكًا أيضًا، كان يتأملني كما لو أنه يتحقّق من وصوله أخيرًا.

لا يأتي الوصول بغاياتنا دائمًا، فنخشى ألا يكون سوى انقشاع القناع عن السراب آخر الأمر. نواصل الركض، لأنّ القناع لا يكفّ يمدّنا بالأمل، والوصول قد يُنهي كل ذلك.

لا أدري هل كنت متوقفة إلى هذا الحد في مكاني، حتى يصلني كل من طاردني بسهولة هكذا؟ أم أنّي كنتُ أتقهقر في الأصل طوال ما مضى من وقت حتى تم إدراكي، فيما أحسب أنّ حياتي تمضي قُدمًا بدأب كبير؟ أردتُ حينها سؤاله هل جاء لاحقًا بي، أم أنّ الحياة رمتْ به على هذا الطريق دون إرادة منه. أردتُ سؤاله إن كان ما يزال يحمل شعوره القديم، أم أنّ الوقت -كما يفعل عادة- قد صرفه إلى وجهة أخرى. هل يُعقل أن يكون هناك سبب آخر لمجيئه؟ في تلك اللحظة تناوبت عليّ الأسئلة، لكني لم أستغرق وقتًا طويلًا لأعرف، ولأن أتمنى لو أنه لم يأتِ».

لو كان للفتاة الآن القدرة على النفاذ إلى عقل الشاب الواقف أمامها، لهالها ما ترى؛ فطاقة الثأر التي كانت تُغذّي طريق جامي صوب ألماز بدتْ وكأنها تبدّدتْ أو تكاد، ما إن وقف أمامها. انتظر

هذه اللحظة كثيرًا، وأعدّ لها عدتها. جهّز أقواله، الطريقة التي سيشفي بها جرحه إلى الأبد، طعم الانتقام الذي أمدّ خياله وأعانه على المضيّ في غايته.

لكنّه الآن يشعر بنفسه شخصًا آخر. يتنكّر دون شعور بالذنب للمشوار الطويل، والليالي المؤرقة، والغضب ينخر روحه. يتنكّر لكل ذلك، ويُسلم قيادَه للحظته هذه، وقد بدتْ الحقيقة الوحيدة في حياته. لن يعود هو نفسه الذي انخرط في طليعة جيش مينيليك إلى السهل، وحفّز وحرّض ليسوّي حسابًا قديمًا. ولا هو الذي بحث عن أمّ ألماز بدأب خشية أن تنجو بنفسها، حتى إذا وجدها صرخ في ناسه وهو يُشير عليها فلحق بها جنديان وقتلاها وهي تحاول الفرار، دون حتى أن يسألا عن الأمر. ولا هو الذي ظلّ منزويًا يشاهد فرقة الأمير تكاد تُبيد مجموعته قبل أن تأتي نجدة مينيليك، لأنّ معركته لم تكن يومًا هرر، وإنما الفتاة التي أدارتْ له ظهرها في ذروة ما كان يتسوّل وجهها.

لذا حين سيشرع في سرد قصته على ألماز الواقفة أمامه، لن يرى نفسه كاذبًا وهو يُخبرها كيف كان محظوظًا حين ترك السهل وهام على وجهه يبحث عن حياة تلائمه بعد أن لفظه الجميع بعد رحيلها. وكيف أفلته الموت مرات كثيرة، حتى غدتْ أيامه هرب واختباء ونجاة لا ضمانة لحدوثها مرة أخرى. حتى إذا سمع بما جرى لأهالي السهل قصده مرعوبًا أن يجد أمه بين القتلى. وبقدر ما هدأ لنجاتها كونها ممن أُجبر على الرحيل عن بيتها رفقة الأشتات، آلمه أن يجد

أمّ ألماز وقد طالها غدر الغزاة. اضطر أن يُعيد كلامه الأخير ببعض التمهّل حين انتبه لاختلافه عمّا سبقه.

حين كان يحتضن ألماز ويواسي فقدها، كان يفعل ذلك بكل الصدق الذي يسكنه. فلم تكن حكايته، بظنه، اختلاقًا حتى يبذل العنَت في نسجها. كانت تلك هي نسخته الوحيدة؛ مما جرى، ومنه هو أيضًا. لذا ستخرج حكاية متقطّعة بحشرجة الصوت، وابتلاع الريق، والدموع الساخنة، قبل أن يُغطّي النشيج المكتوم على ما تبقى منها، بينما يحتضن الفتاة. لم يستغرب كيف أتقن تقمّص حالته تلك، فهو لم يشهد غيرها، وإن حصل، فانحيازه دائمًا لما قرّ عليه عقله ووجدانه أبدًا، وليس لعابر مهما كانت سطوته. تأكد من كل ذلك وهو يُشارك فتاته البكاء المرّ ما إن بدأته.

ألماز وبينما كانت في أحضانه اقتربتْ أكثر من تحديد شعورها حول حياتها ما قبل هرر. تشعر بالشفقة على نفسها، حين تقطع كل تلك المسافة وتصل منهكة لتجد نفسها تراوح في المكان. كلّ ذلك التوق لم يذهب بها بعيدًا. ها هي بين أحضان جامي، يحكي لها ما فعلتْ به الحياة، وهو الأمر الذي كان يُمكن حدوثه قبل أعوام دون رهق ولا آمال لا تكفّ تبرق من بعيد، وتظلّ بعيدة إلى الأبد، مهما هرولتْ نحوها. ما حصل هو أنها مشت كل هذا الوقت في دائرة وبينما كانت تظن أنها تسير إلى الأمام، كانت في الحقيقة عائدة إلى النقطة التي بدأت منها. لكنه العود الأكثر إيلامًا، كونه يأتي على غير رغبة ومع كثير من التعب. من يعود إلى نقطة بدئه مرغمًا لا

تُعادله الحياة مع من لازم مكانه منذ البداية. إنها تُرجعه أشواطًا إلى الوراء.

لم تستطع سماعه. يُمكنها تمييز حكاية متقطّعة، وصوت متحشرج، ودموع ساخنة تلامس خدّها، ونشيج يصل ارتجاجه قويًا إلى أضلاعها. لكنّها مع كلّ هذا لم تستطع سماعه. كانت منشغلة بنفسها، بجرد حساب العمر المهدور. حتى حين أخبرها عن أمها احتاجتْ أن تحضر قليلًا وتمنحه انتباهًا أكبر. وحين بدا وكأنه يُعيد كلامه الأخير، عادتْ لانشغالها. خطر لها أن تسأل كيف قتل رجال مينيليك أهلها والصلبان ظاهرة في جباههم، بينما كان ذلك سبب نجاتها. أن تسأل عن الناجين في هرر يستمر ظهورهم، كيف وجدوا ملاذًا سهلًا، فيما كان الموت الخاطف دون عذاب بغية الباقين؟ أن تسأل إن كانت ثمة طريقة لتعود الحياة دون كل ذلك، وكأنّ شيئًا لم يكن. خطر لها كلّ ذلك لكنها أحجمتْ، ووجدتْ نفسها تبكي بمرارة، ليس على أمها وحسب، ولا هرر، ولا على ملاذات الصفوة، ولا على استحالة عودة الحياة الفائتة. ليس على شيء بعينه، بل على كل ذلك معًا. ما حدث وما لم يحدث. بكتْ على ما مضى وما هو آت. ورغم ذلك، حين شاركها جامي البكاء لم تستطع سماعه أيضًا.

وصلتْ الأنباء إلى عدن، فأدرك رامبو أنّ وقت التحرك قد حان.

قرار عودته هو الآخر إلى هرر كان من أجل لملمة خساراته. تبدّتْ المفارقة هنا بوضوح؛ يهرع الجميع إلى المدينة بغية تدارك ما

يمكن، لكنّ الفوات كان سمة هرر على الدوام، وهو أمر لم يجد من يلمحه ولو عرَضًا.

كان ثمة غرض آخر لدى رامبو وهو سرعة مغادرة عدن. كتب يُخبر أهله أنّ «**أيّ مكان آخر سيكون أقلّ ضجرًا منها؛ لأنها -حسبما يعرف الجميع- أكثر الأماكن ضجرًا في العالم، وهو مكان لا يُقيم فيه أحد إلا مضطرًا**». لكنّه وكمن تذكّر أنه إنما فارق بلاده ضَجِرًا، فاستدرك «**أكثر ضجرًا بعد المكان الذي تسكنون فيه طبعًا**». لا تفسد هذه الحيلة رغم قدمها في الزمن؛ فمتى ما كان ممكنًا أن تبدو الخسارة أقلّ فداحة، فليكن.

لكن ما الذي جعل الرجل يقذف بروحه إلى هذا العذاب، لم اختار عدن إذن وهو يُكنّ لها كل هذا البُغض؟ سيمرّ وقت حتى يكتشف هو نفسه جواب ذلك؛ لمَ أتى ولمَ يحاول الفرار منها ما إن تطأها قدماه.

سيدرك رامبو أنه إنما جاء انقيادًا لحلم قديم، لخيال سافر ساقه قسرًا نحو نقاء السلالات القديمة، وكأنه أراد أن يُحقّق نبوءة وضعها هو نفسه يافعًا. لكنّ جنّة خياله لم تتجسّد على الأرض، بدءًا من عمله قليل المردود، وقد كان يُشرف على نساء يُنقيّن البنّ قبل تصديره إلى مارسيليا مقابل ستة فرنكات في اليوم، ومرورًا بصدمته الكبرى حين اكتشف أنّ المدينة عبارة عن صخرة بشعة دون أيّ قشة من العشب، أو نقطة ماء صالحة للشرب، ما يضطره لشرب ماء البحر المقطّر تحت شمس لاهبة. قبل أن ينتهي كل ذلك إلى

نفور من الناس ما جعلهم ينادونه سرًا بالكرّاني أي الشرير، قبل أن يشيع الاسم ولا يجد أحد حرجًا في مناداة رامبو به علانية. سيعرف الرجل منذ اليوم الأول أنه في المكان الخطأ، لكنّ كل لحظة قضاها هناك كانت بغية الحصول على مكان آخر، مكان أفضل. طوال هذا الوقت، لم يستطع رامبو أن يرى عدن على حالها. كان قد اكتفى وتشبّع بالتي في خياله، حتى لم يعد لغيرها مكان قط.

أم تُراه كان راغبًا منذ البداية أن يُعذّب روحه، ويبذلها في دروب الرَهق، علّها تتطهّر من كل مسارات الغواية التي سلكتها رفقة فرلين؟ تلك المتع التي سربلتْ نفسه وأثقلتها بعد أن بلغ به الانغماس حدًّا يصعب معه ألا تطفح روحه ألـمًا آخر الأمر.

ومع هذا لا يمكن التعويل على رأيّ واحد لرامبو في عدن، فالمدينة التي لم يترك سانحة دون أن يلعنها، وكان يُكرّر أنه يستحيل لأحد أن يعيش بمشقة أكثر منه في عدن، كان يُخطّط للعودة إليها حتى بعد أن بُترتْ قدمه، حتى أنه سبق وتمنّى أن يُدفن فيها. ما لم ينتبه له رامبو، ولعلّه فعل، أنّ المدن المطلّة على العالم، معتادة على الوجوه الغريبة التي سرعان ما تغدو مألوفة، فلا تقابل الوافد الجديد بكثير تبجيل. لهذا حين يتهوّر التاجر حديث العهد بالمكان، ويصفع تاجرًا عدنيًا، سترتدّ عليه الصفعات، ويجد نفسه مخفورًا للشرطة مع شهادات أهالي الحيّ ضدّه. لم يكن هذا بعيدًا عمّا جرى في قبرص التي عمل في أحد مقالعها قبل أن يُغادرها بعد عراك مع ناسها، ولا مصوّع التي لم يكد يتآلف مع أهلها حتى أُخرج منها، ولم يجد عملًا

في جدة وسواكن والحُديدة. كل هذا يصعب أن يحدث في هرر، المدينة الداخلية المعزولة، التي لا تعرف إلا نفسها، بل والمحرّمة على الملامح الغريبة، لكن والمنبهرة بها في الآن نفسه.

لذا فإن انتهاء الحرب في هرر، لم يُرح أحدًا بقدر رامبو الذي سارع إلى حزم أمتعته، التي لم تكن سوى زنّاره الذي لا يفارقه، وقصد البحر نحو ضفته الأخرى في زيلع.

كم مرة جرّب رامبو درب هلاكه هذا؛ هرر، ثم الصحراء الدنكالية فزيلع، ثم البحر يقذف به بعيدًا. ها هو الآن يُعيد الكَرّة في الاتجاه الآخر. هل كان يُدرك كم يُهيّئه ذلك للتلويحة الأخيرة؟ كم جنازة أقامها الرجل لنفسه في هذا الطريق دون أن يدري؟

لكن هل حقا كان الرجل معنيًا بالوجهة الأخيرة، بالوصول، أم أنّه كان مهجوسًا بالطريق، بالمشوار حتى لو لم يفضِ إلى شيء؟ هل كان مسكونًا بالسفر، بالهرب من روحه دون جدوى، فلا تعدو الأماكن حينها إلا ظلالًا لتلك الحاجة التي لا تنتهي؟

أرسل إلى أمّه قبل أن يركب البحر يُعلمها بعودته إلى هرر، وبتأخر وصول كتب طلبها منها، قبل أن يختم وهو يسأل عن محصول السنة، ويتمنّى بحنوّ أن يكون وفيرًا بحيث يعمر قلبها بالسعادة.

كان رامبو بحاجة ليذهب بعيدًا حتى يرى أمه. لم يستطع فعل ذلك وهو بين يديها. كان شديد النفور وتوّاقًا للهرب منها في شارلفيل، لكنه ما إن فعل، حتى استقامتْ علاقته بها. هل لهذا كان

لا يرغب في العودة إلى فرنسا أبدًا، ويُفضّل أن يحتفظ بالمسافة التي تُبقيه على مودة غير قابلة للاختبار؟

هي أيضًا لم تكن لتتخلى عن صرامتها لولا حدوث ما كانت تخشاه. فما إن رحل الزوج ناجيًا بنفسه من تسلّطها حتى ارتدّتْ تحرس ابنها لكيلا يُكرّر فعلة أبيه. لكن ما إن حدث ذلك ولم يعد لديها ما تحرسه وتخشى فقده، حتى عادتْ أمًا تحنو وتشتاق.

أعاد تثبيت زنّاره ما إن نزل بميناء زيلع استعدادًا لمسير الشهرين في الصحراء الدنكالية الموحشة. من أجل أن يكون خفيفًا دائمًا وجاهزًا لكل سفر، كان رامبو يضع مدّخراته كلّها في ذلك الزنار ويجوب بها البر والبحر، دون أن يلتفت خلفه. لكنّ تلك الخفّة المقصودة أورثته ثقلًا من حيث لا يحتسب. فالمال الذي كان الغرض من جمعه هو التحرّر من أي قيد، أصبحتْ حراسته الواجبة هي أكثر الأعباء المقيّدة. حتى أنه اضطر للاعتراف مرة في رسالة «**عليك أن تمطّ المال الذي ادخرته وتلفّه حول وسطك، وتحرسه كل الوقت.. لا أقوى على السير حاملًا هذا المال على ظهري؛ لأنه أمر سخيف ومتعب وخطر**».

لكن هل كان رامبو منتبهًا أنه إنما يُعيد سيرة أمه التي لم تكن تتحرّك إلا وهي تشدّ كيسًا طويلًا حول خصرها تجمع فيه أموالها وصكوك الدَين حتى ماتت، لكن دون أن تنسى ترك ورقة إلى ابنتها كتبتْ فيها «**إذا متّ لا تدعيهم يأخذون المخزون في هذا الجيب. خبئيه.. وفوق كل شيء ادفعي لجنازتي منه**». أو لعلّه كان منتبهًا

للغاية بل ويسير على نصيحتها دون حياد حين كتبتْ له فقط، ودون مناسبة، لتطلب منه أن يحرص على ماله ويحترس من ضياعه أو سرقته. هل حرَف كل ذلك رامبو عن مقصده وكبّله بالأعباء؟

لكنّ العبء لم يتوقف عند هذا الحد؛ فاحتكاك الجلد الدائم بأطراف الزنّار الحديدية الصدئة، وملامسته من بعد لأنواع من العملات المعدنية؛ فرنكات، تالرات، روبيات، وذهب، خلّف أمراضًا وتقرّحات، لم يكن رامبو يداويها إلا بالتجاهل وكأنها ستزول وحدها، قبل أن يُجبره استفحالها على طلب الدواء من أهله.

صحراء دنكاليا هذه المرة أبانتْ لرامبو كم بلغ تعب الجسد في الانصياع لرغبات سيده؛ فمع تقرّحات وسطه، كان وجع ركبته قد بدأ يمتدّ إلى باقي الساق، فيجعل الاعتماد عليها وحدها طقسًا من العذاب قبل أن ينحو للاستحالة. كان يمكن لكل ذلك ألا يحدث لو قرّر رامبو أن يتوقف برهة ويلتفت لجسده المتعب. لكنّه لن يفعل. حتى بعد بتر الساق المعطوبة، وانتشار خبثها في الجسم كله، لن يشغل الرجل حينها إلا التذمر من خذلان جسده له، وإرغامه على التوقف في غمرة رغبته في إكمال الطريق.

لم يكن ثمة بوابات على سور جُغل حين بلغ رامبو هرر أخيرًا.

المدينة المحرّمة بدتْ مشاعًا. ورغم مرور أشهر على الحرب، كان الموت ما يزال يُخيّم على المكان، وتفوح رائحة الدم والجثث من كل زاوية. فقدت هرر وجهها، بدت باهتة بل بشعة، كأنها امرأة فائقة الجمال باغتها أحدهم بأن حرق وجهها ثم فرّ هاربًا. القذارة

في كل جانب، والمتسولون بأطراف مبتورة يحتلون الزوايا، ولم يعد من السوق إلا اسمه وبضعة محال متناثرة، فيما خفّت الحركة حول الجامع الكبير بعد أن صعد مينيليك على سطحه وبال على مئذنته، قبل أن يُحوّله إلى كنيسة دون مرتادين. فيما بعد، وحين سيهدأ رامبو سيكتب إلى صديق يصف فيها صدمته تلك «**لابد للمرء أن يكون فارغ الفؤاد كي يعود بالذاكرة إلى تلك الأشلاء والنتانة**».

نزل رامبو من دابته مستعينًا بعكّاز، عدّل زنّاره، وخطا بضع خطوات حتى بلغ باب منزله، وقبل أن يمدّ يده لمفتاحه، كان قد فُتح ليجد ألماز أمامه.

إن شكوتُ..

فلأنها طريقة أخرى للغناء!

(١٠)

تشعر ألماز بالغيظ وهي ترى المدينة تُعطي ظهرها لما جرى، وتحاول البدء من جديد. يغمرها الخزي لأنها لا تزال تتنفس فيما أجساد كثيرة مطمورة في التراب. كلما تذكّرتْ ميتًا تعرفه، شعرتْ وكأنها سلبتْه حقّه في الحياة دون وجه حقّ. لكنها انتبهتْ كيف أنها لم تكن الوحيدة الناجية على حساب الآخرين؛ فقد بدا غريبًا كيف وجد كل هؤلاء الناس ملاذًا، فيما كانت النجاة حينها ضربًا من الاستحالة. بدا غريبًا أكثر، كيف انخرطوا من فورهم في الحياة الجديدة، وكأنهم ما عرفوا غيرها قط!

تشعر ألماز أنها أمام هرر أخرى غير التي خبرتها في السنين الفائتة، ولا تعرف إذا كان ما جدّ هو شكل المدينة، أم إدراكها هي. تعرف بوجود أغنياء وأصحاب حظوة، في مقابل عامّة ومعدمين، لكن لم يكن ليخطر ببالها أنّ الموت سينتقي وفق ذلك. غدتْ وجوه الناجين تُصيبها بالقرف، تلك الملامح الطافحة بالأمل في مكان هو ليس أكثر من مقبرة كبيرة. تكرههم، وتكره نفسها أكثر، لأنها في

آخر الأمر مثلهم مهما سعتْ لتبدو غير ذلك. لم تكن النجاة وحدها هي ما يُغيظ ألماز؛ فالمدينة بدّلتْ وجهها بآخر دون أن ترتبك لحظة. من اليوم التالي، تعايش الناجون مع فكرة وجود كنيسة دار العلم، عوض الجامع الكبير، ومع انتفاء فكرة القداسة عن مدينتهم ورفع قيود دخولها أمام الجميع، ومع أن تفعل الواحدة ما تشاء، بدءًا من ترك غطاء الرأس، وانتهاءً بما أصبحتْ هي عليه، من تردد على بيت رامبو نهارًا وعلى مرأى من الجميع. يُغيظها كلّ ذلك، لأنه أبان عن قشرة زالت دون عناء، فيما كان الكلّ يتواطأ لتبدو نواة يصعب كسرها.

لو أُتيح لألماز أن تتخطّى فزعها وترى الأمر منزوعًا من غشاوته، لبان لها كم يُوجعها أن تتهدّم هرر كحلم ومبتغى ظلّتْ تطارده سنينًا. لا يهزّها الموت في ذاته، إلا لأنه هزّ صورتها عن المدينة، ومن ثم صورتها عن نفسها، بكل ما حوته من نقص واعتوار. الحرب على هرر، كانت حربًا على ألماز حصرًا دون غيرها، وانتهى بها الأمر أن أصابتها في القلب، حتى لو بدا أنها في عداد الناجين.

اضطربتْ حين سمعتْ بمقدم رامبو، وعاودها ألم معدتها. خليط من فرح وخوف وإنهاك. عودته هي الشيء الوحيد الذي قد يُعيد لها هرر كما عرفتها، بوجهها المغشوش نعم، لكن المسالم والعامر بالطمأنينة في الآن نفسه. لكنّها منهكة ولا تريد لعودته أن تضع على قلبها ثقلًا فوق أثقاله.

لم تنشغل كثيرًا بجامي، وهي تخطو صوب النافذة ترقب وصول

رامبو. كانت قد استجابتْ أخيرًا بعد إلحاحٍ مضنٍ لطلبه أن يُشاركها بيت الأوروبي كما يُناديه، وكما ستصبح تُناديه لاحقًا. تعذّرتْ كثيرًا أول الأمر، لكنّها خضعتْ حين بدا صاحبها بلا مأوى. لم يكن هاجسها شيء بقدر خشيتها أن يعود للتقرّب منها، وهي التي ظنّتْ أنّها قد طويت هذا الأمر إلى الأبد. في الأيام الأولى، كان يسأل بفضول عن مالك المنزل، قبل أن يركن إلى أنها تعمل في خدمته. لم تسعَ إلى تصويب ذلك حينها، ثم نسيتْ الأمر حين كفّ عن السؤال.

لم يكد جامي يستقرّ حتى بدأتْ تشعر أنه على وشك قول شيء. وكلما حدث ذلك تميل سريعًا إلى استرجاع فاجعة الحرب، وهو ما يقودها دون تصنّع إلى بكاء مرّ، فيتراجع مذهولًا. لكنّه مع الوقت بدا وكأنه وجد طريقة أخرى للاقتراب، حين أكثر من مواساتها باحتضانها، فلم تعد إلى حيلتها تلك.

لا أثر لرامبو بعد، لكنّ قلقًا بدأ يكبر من لحظة لقاء الرجلين؛ فخطر لها أن تصرف جامي سريعًا. ترددتْ قليلًا لكن ما إن حسمتْ أمرها حتى كان الأوان قد فات، ولاحتْ صورة رجلها المنتظر يقترب أكثر وأكثر حتى توقّفتْ دابته أمام الباب وترجّل يستند على عكاز، فسارعتْ تستقبله.

لم تستطع تحديد مشاعره على وجه الدقة وهو ينظر إليها. كان يحتفظ بملامحه نفسها؛ الشعر القصير الأشيب، والوجه المتيبّس كالمومياء، والعين القلقة لا تكاد تثبت على حال، لكن مع مسحة أسى ظاهرة عمّقتْ من كل ذلك وأبرزته. خطر لألماز أن تسأله عن

وجهه الغارق في الحزن لكنها عدلتْ، وهي تفترض أنّ مردّ ذلك هو حال المدينة. لكنّها لو فعلتْ لفاقمتْ من كره رامبو لشكله الذي تغيّر من وجه موّرد بأعين زرقاء وشعر أسود ممشّط بعناية ومسرّح بماء الورد في بلاده، إلى الذي تراه أمامها. حتى أنه كتب لأمه يشكو أنه يشيخ بسرعة، قبل أن يزهد في الكاميرا التي اشتراها حين طالع وجهه، ليُقرّر آخر الأمر أن يتوقّف عن إرسال صوره لعائلته.

لم تلحظ ألماز، ولعلّها فعلتْ، كيف بدا أنّ الرجل مرتهن للتعب دون أن يُغيّر الوصول من ذلك. لا يعلو الارتياح وجهه بانتهاء المشقّة وكأنها بدأت لاتو. يكابد كي يصل، ثم تستمر المكابدة قدرًا ملتصقًا بجلده. لا ينتهي سفر الواحد في التعب، ما دام هذا السفر داخله، مهما هرب، يهرب به لا منه.

هل هذا ما جرى لرامبو لحظة فارق فرلين؟ هل هرب بالجرح بين أحشائه، وهو يظنّ نفسه يهرب منه؟ ألم يكن مفتاح كلّ شيء أن يعي الجميع هذا؟ أن يُدرك رامبو أنه لا يزال في خضم جراحه لم يبرأ بعد، وأن تُدرك ألماز أنّ رجلها وإن بدا فارغًا من الخارج، فقد كان محتشدًا بحيث لن تجد مكانًا لها، وأن يُدرك جامي أنه كان على هامش كل ذلك على الدوام، فيما يظنّ نفسه داخله.

حين تفرّستْ في وجهه، بدا رامبو مشدوهًا حين رأها أول الأمر. ولعله ظنّها في عداد الأموات. رأت ألماز ما يُشبه الدمع في عينيه، دون قدرة منها على ردّه إلى حزن أم ابتهاج. كل ذلك وهو ينظر إليها دون أن ينطق. حين اقترب أكثر، تنبّهتْ إلى شحوب

وجهه البالغ، وكأنه شاخ فجأة. ومرة أخرى تسكنها الحيرة، إن كان مردّ ذلك لمشاقّ السفر، أم لغيره، قبل أن يرقّ قلبها لحاله، وقد استقرّ بها الخاطر أنه منكسر لانكسار هرر، أو انكسارها هي. بدا وكأنه سيقول شيئًا قبل أن يعدل، وهو ينظر لشيء خلفها. التفتتْ فإذا بجامي يُطلّ، وهو عاريّ الصدر، نافر العضلات، يسأل بالأمهرية ساخرًا إن كان سيدها الأوروبي قد وصل أخيرًا. تبسّم رامبو وهو يردّ باللغة نفسها متسائلًا ما إذا كان قدومه يُزعج الشاب الوسيم. تلعثم جامي وهو يُفسح الطريق، وقد أربكه إتقان الأوروبي للغته.

أعانتْ ألماز رامبو على الدخول، وهي تحكي له كيف وجدتْ بيتها مهدّمًا ما اضطرها للسكن عنده. وأنها استضافتْ الشاب حتى يجد مأوى آخر، قبل أن تُطمئنه أنّ هرر تبدّلتْ فلم يعد من بأس في كل ذلك. لم تسمع ردًا، فاختارتْ الصمت هي الأخرى.

ما إن أجلستْ رامبو، حتى همستْ لجامي في طريقها للمطبخ أن يجمع أغراضه ويرحل كي لا يُوقعها في مزيد من المتاعب مع سيدها. هنا انتبهتْ كيف قالت ذلك بإتقان ودون سابق عزم. ومع هذا فلم يُغادر بالها كيف جاء لقاءها برامبو عاديًا، وكأنه قادم من جولة في السوق. بخلاف التعب، لم تُميّز في صفحة وجهه نحوها شوقًا أو استياء. كان فاترًا محايدًا. يُربكها هذا الأمر، فلا تملك معه أن تفرح أو تغضب، لذا وجدتْ نفسها منقادة دون تفكير أن تتبعه وتُساير عاديته حتى تخلص إلى شيء.

حين عادتْ تحمل الطعام، كان جامي ما يزال في البيت، بل ومستغرقًا في حديث ضاحك مع رامبو.

«تلقيّتُ دعوة للغداء من السيد».

لم ترد على تبرير جامي المرتبك، وظلّت على ملامحها الجامدة.

ستُدرك ألماز بعد وقت طويل، وبينما تسترجع ما جرى، كيف انبنى كل شيء على تلك اللحظة بالذات. وكيف أنها إذا كانت مهزوزة اليقين فيما مضى، فقد أبان كل ما تلا ذلك الغداء عن حقيقة عارية، دون أن تراها في وقتها.

حين انتهوا، حملتْ أطباقها، وقصدتْ المطبخ، قبل أن تلتفت لجامي وتُشير له بالمغادرة. تعمّدتْ قضاء أطول وقت، حتى تعود وقد غادر. لكنها ما إن رجعتْ تحمل إناء القهوة الفخاري، حتى وجدته على جلسته نفسها. هذه المرة جاء التبرير من رامبو. أخبرها أنه يعتقد أنّ جامي سيكون مفيدًا في خدمته، خاصة بعد تفاقم آلام ركبته. وأنه أوكل إليه بعض المهام التي تستوجب أن يُقيم معهما في البيت.

تبدّتْ ورطة ألماز في صمتها المطبق، وهي تُنقّل بصرها بين الرجلين اللذين سرعان ما عادا إلى موضوع كانا قد شرعا فيه قبل قدومها. فاكتفتْ بجلب فنجان إضافي.

غدا من العسير الآن ألا ينتبه جامي لطبيعة شعورها تجاه رامبو. تخيّلته وهو يثور لأنّ رجلًا آخر قد يحلّ مكانه، وهي لا تملك

هذه المرة أن تغادر وتتركه لمصيره. تتشابك المصائر أمامها أكثر من قدرتها على الحل. كان كلّ رهقها في مواجهة مزاج رامبو المتقلّب، وها هي الآن تجد نفسها بمعية نزق جامي واندفاعه.

كان هذا أبعد ما ذهب إليه تفكير الفتاة، دون أن تدري أنّ لحظتها الراهنة تقول الكثير مما لم يُنتبه له؛ فقد صدف، في لحظة استرخاء، أن كانت ساهمة تنظر إلى رامبو، في الوقت الذي كان هو شاردًا ينظر إلى الوافد الجديد جامي، والذي بدوره كان يتملّى بالنظر إلى ألماز.

للبيع..

الأجسـاد، والأصـوات، والرغـد الشاسـع

الذي لا يحتمل التساؤل!

(١١)

عادتْ ألماز إلى السوق. نجح الأمر أخيرًا بعد مرات لم تقدر فيها أن تطأ أرضه. أعانها أن وجدتْ كل شيء قد تغيّر؛ أماكن المحال، وجوه الباعة، وحتى الزبائن. بدا وكأنها إزاء سوق آخر لا تعرفه، بخلاف العجوز بائعة القهوة التي لم تعد تفعل شيئاً غير رصّ الفناجين قرب بعضها وملئها عن آخرها، بعد أن غدت وحدتها أكثر قسوة.

مع الوقت غدتْ ألماز قادرة على تمييز وجوه من شهد الفاجعة عمن وفد أخيرًا. فكلما التقتْ وجهًا فاترًا بأعين زجاجية لفرط لمعانها، وجلد متعلّق بالعظم ومتدلٍّ كثمرة فاسدة، وصوت خفيض بالكاد يُسمع، وابتسامة كالشقّ الحادّ الرفيع في الوجه، كان صاحبه مثلها؛ ناجٍ بالاسم فقط، فيما يحمل بين جنبيه روحًا ميتة.

أما الوافدون الجدد، وهم كثر بعد اقتلاع البوابات، فقد كانوا عاديين تمامًا، بأرديتهم البيضاء المائلة إلى الصُفرة، يُنادون على بضاعتهم بأصوات عالية، يربحون، ويمازحون المشترين، ولا يكفّون يتحدثون عن آمال عريضة بالربح والحياة الرغيدة. لفتها

بائع إلى جوارها يتحسّر على تفويت القدوم إلى هرر قبل ذلك. التفتتْ إليه، فلما رأى ملامحها سكت، فابتسمتْ له، وهي تجهد كي لا تُثير انتباه الأهالي الجدد بسلوكها الغريب.

أعادها كلام البائع إلى حالها القديم؛ هل كانت ستتشوّف إلى لحظة الوصول إلى هرر كما فعلتْ، لو كانت المدينة دون أسوار؟ هل أخذ ذلك الحلم الذي كبر معها شكله من الاستحالة البادية عليه حينها؟ ماذا لو لم تكبر وسط أُناس أقصى أمانيهم كان اجتياز السور؟ هل بوصولها إلى هرر، كانت تُحقّق حلمها أم أحلام الآخرين التي تسلّلت إلى وجدانها مع حليب الأم؟

ومع هذا، فثمة لذة خفيّة تسكنها كلما طالعتْ وجوه الوافدين الجدد. هذا وحده يُخبرها أنها أقدم، وأكثر التصاقًا بالمكان من غيرها. شعور لم يكن ملكها في يوم، وهي المسكونة طوال وجودها السابق بغربتها عن أهل المكان.

ابتسمتْ لخاطر جديد، ما إن بدت، رغم ما جرى، أحسن حالًا من أهالي السهل الذين انقضى بهم العمر دون أن يصلوا إلى غايتهم. تبدّى لها بؤس انتظار الأشياء التي لا تأتي، دون أن يفقد الواحد إيمانه بقدومها. أيّ حال ذلك الذي قضى فيه أهالي السهل أعمارهم، وقد فوّتوا كل آني ومتيسّر بغية بعيد مستحيل. كم بدتْ هرر بعيدة في سماوات أحلامهم، دون أن يملّوا النظر لها ومناجاتها كل يوم. ماذا لو لم يكن ثمة هرر، كيف سيكون الحال بأهالي السهل؟ أصابتها الفكرة الأخيرة بالارتباك. ماذا لو لم يكن لديهم

قصد يطلبونه، ووجهة يتطلّعون إليها كلما شعروا بعدم الجدوى؟ هنا بدأ الارتياح يتسلّل لألماز، وقد أخذتْ تركن إلى أنّ هرر قد لا تكون في أذهان أناس السهل، سوى زوّادة يتقوون بها على الحياة. كان المراد هو سبب للبقاء هناك ابتداء، وليس مآلًا بالضرورة. تبدو الصورة الآن أكثر وضوحًا؛ كان لا بدّ أن يمر الطريق إلى هرر عبر أجساد أهالي السهل، إذ لا حياة لهم إذا انتهتْ أسطورتهم أمام أعينهم، إذا فُتحتْ الأبواب وانتفتْ الاستحالة. كان يجب أن يموت أهلها، لأنّ فكرتهم عن أحلامهم ماتت قبل ذلك.

أما أمها فتبعث في نفسها الحزن كلما تذكّرتها دون أن تُفارقها فكرة غريبة؛ تشعر بأنّ أمها كان يجب أن تغيب، أن تختفي فجأة وتترك وراءها حكاية مبتورة يُكملها الناس بأساطير متناقضة. وجدتْ ذلك أليق بحياة كانت ظلًا لغائب ليس إلا. ما يُحزن ألماز أنها لم تكن تتمنى أن يكون الغياب على تلك الشاكلة التي جاء عليها. تتمنى لو أتيح لأمها أن تموت موتًا غامضًا عامرًا بالاحتمالات، بحيث تنفذ منه الحياة من جديد، لا موتًا تامًا لا ثغرة فيه، فالموت المحفوف بالشهود، حكاية منتهية مهما أعيد سردها.

عادتْ عن شرودها، وهي تستجيب لزبون بدا أنه قد كرّر طلبه في انتظار أن تنتبه له. اختارتْ له حزمة، وأضافت أخرى من عندها وهي تعتذر، فغادر راضيًا. لمّتْ ما تبقى من بضاعتها، وقصدتْ البيت.

في الطريق، كانت منشغلة بورطتها في وجود جامي. لا هي

قادرة على الاقتراب من رامبو، ولا مجاراة الساكن الجديد في تقرّبه منها. ليس أمامها إلا التعويل على نفور رامبو وضيقه المباغت الآتي لا محالة. لن يكون غريبًا إذا رجعتْ ووجدته قد طرد جامي وهو يُنذرها ألا تجلبه معها مجددًا. مسّتْ قلبها رأفة بالشاب، لكنّها عادت واستجمعتْ قسوتها إذا لا سبيل لبقائه بينهما.

لم تكد تنحرف في زقاق جانبي، حتى تسمّرتْ في مكانها. كان العجوز الذي يجلس القرفصاء أمامها على هيئته نفسها؛ يُطوّق نفسه بقماش أبيض مائل إلى الصفرة يلتفّ من ظهره ليلمّ ركبتيه إلى صدره، ويُصوّب بصره إلى الأرض في ذهول، فيما يده لا تكفّ تُقلّب في مسبحة عتيقة بالبطء نفسه. تملّكها الفزع، وألم يعتصر معدتها، ليس لأنّ الرجل نجا من الموت وقد كان قبالته تمامًا، لكنْ لأنّه أعادها إلى تلك اللحظة بكل ما فيها من خوف ومصير مجهول. شعرتْ بنفسها المرعوبة من دخول جنود مينيليك وتسابقهم لقطف رؤوس الناس. شعرتْ بالجنديّ يُقبل نحوها وشهوة القتل تطفر من وجهه، قبل أن يتراجع ما إن لمح الصليب. ارتعدتْ ما إن اقتربتْ الصور المتواردة على رأسها من لحظة دوس الجثث، فاستدارتْ من فورها وركضتْ للبيت من طريق آخر.

حين وصلتْ لاهثة، كان جامي على الباب بصدر عارٍ يُطعم القطط. ما إن أبصرها حتى نثر الطعام بعيدًا، وفرّق القطط وهو يُحيفها بقدمه.

«سيغضب لو رأى كيف تعامل قططه هذه».

ضحك جامي لتعليق ألماز، قبل أن يقترب منها وهو يتلفّتْ:

«الأوروبيون مجانين.. لا أتخيّل نفسي أُهدر طعامًا على هذه الحيوانات.. هل بعتِ بضاعتكِ كلها؟».

أومأت برأسها موافقة وقد انتبهتْ أنها أفلتتْ القات في الطريق لشدة فزعها. لكنّ ذلك لم يمنعها من التبسّم وهي تعبر إلى الداخل، فقد بدا لها أنّ الأمور سائرة إلى حيث تشتهي بأسرع مما ظنّتْ، إن لم يكن من رامبو، فقد يُبادر جامي للمغادرة من تلقاء نفسه.

كان رامبو على كرسيّه، معطيًا ظهره للباب، ومستغرقًا في كتابة رسالة بيد، فيما الأخرى تجوس في الرأس الحليق. رأتْ هذا المشهد عشرات المرات، وفي كل مرة لا يُغادرها الأمل أن تجد نفسها يومًا في رسائله، رغم أنّ الأمور لا تبدو سائرة على هذا الدرب الذي تشتهي. ومع هذا انخرطتْ من فورها في لعبتها الأثيرة، وراهنتْ على لحظة غمس القلم في الدواة، فربحتْ كالعادة.

شعر رامبو بحركة خلفه فظنّه خادمه الجديد.

توقفتْ ألماز مكانها، وهي تسمع رامبو يصف جامي بالعزيز، وهو يسأل إن كان قد فرغ من إطعام القطط، قبل أن يستدير مبتسمًا ليجد الفتاة أمامه بملامح منكمشة، فسارع إلى لمّ ابتسامته، وهو يُحدّق في الصليب المرتسم على جبينها. لم يكد أحدهما ينطق، حتى دخل جامي، وأحال المكان إلى صخب وهو يحكي كيف لم يغادر مكانه حتى أشبع قطط البيت، وتلك الهائمة على وجهها.

«لمَ لا ترتدي شيئًا؟ ماذا سيقول الـ..».

لم تكد ألماز تُنهي كلامها الموجه لجامي بنبرة حادة، حتى قاطعها رامبو وهو يسألها عمّا يُضايقها في ذلك، قبل أن يلتفت للشاب ويطلب منه ألا يُلقي بالًا لحديث ألماز التي تكره الجمال. ضحك الاثنان، وظلّت الفتاة تلوك غيظها من ورائهما.

حين حلّ الليل، كان كلّ انشغالها مُنصبًّا على الانفراد برسالة رامبو التي تركها قبل أن يُغادر إلى فراشه. غير أنّ جامي وجدها فرصة ليختلي بها، وهو يشتكي من انقضاء الوقت مع الأوروبيّ بعيدًا عنها. بقدر ما أراحها نفور جامي من رامبو، وضيقه بملازمته في غيابها، كانت تتمنى أن يُخلّي هو الآخر بينها وبين الرسالة. ولما امتدّ الوقت دون جدوى، تركتْ جامي وغادرتْ مضطرة، دون حتى أن تقرأ حرفًا واحدًا.

لكن لمَ الندم على شمس أزلية
ما دمنا منخرطين في اكتشاف النور الإلهي
بعيداً عن البشر الميّتين عبر الفصول

(١٢)

ضجّ السوق بخبر وافدين جدد.

بدا غريبًا أن يسترعي ذلك انتباه الناس بعدما غدتْ المدينة مشاعًا أمام كل راغب. لكن لم يمرّ وقت حتى تبيّن لألماز مردّ ذلك. فلم يكن الوافدون الجدد سوى قساوسة أوروبيين بكامل هيئتهم، تتدّلى من رقابهم صلبان ذهبية كبيرة، تلمع مع انعكاس الشمس عليها، يتبعهم رجال دين أفارقة، بأردية أريد لها أن تبدو فخمة، غير أنّ الوقت قد أحالها أقرب إلى الخرق البالية.

كانت المرة الأولى التي تنتبه فيها ألماز إلى أنّ الأوروبيين قد عزفوا عن هرر بمجرد أن سقطتْ قداستها، ولم يعد محرّمًا دخولها. بدا وكأنّ المدينة فقدتْ فتنتها التي كانت تستدعي أن يستميت الواحد منهم في التحايل كي يعبر سورها. بدتْ هرر وقد هبطتْ فجأة من سماوات التمنّي، لتعود مكانًا لا يختلف عن غيره في شيء. كانت حُلمًا وتحقّق، فانتهى الأمر، أو لم تعد حُلماً بالأساس، فلا تستدعي أيّ قدر من العناء. لكنّ ذلك الانتباه ظلّ حول المدينة ولم

يعبر بالفتاة إلى حالها. كم تبدو شديدة الشبه بهرر، على الأقل في ذهن رجلها!

من جديد أعادها ذلك إلى أهلها في السهل. كان القدر رحيمًا بهم إذن حين لم يشهدوا موات حلمهم الكبير، فلا شيء يقتل الأحلام مثل تحقّقها، سواء بالحصول عليها، أو بشيوعها، فلا تعود ثمة فرادة لأصحابها.

مرّ المبشرون الأوروبيون أمام ألماز في طريقهم إلى كنيسة دار العلم، وأوكلوا إلى نظرائهم الأفارقة توزيع أغذية وملابس على الناس، فزاد ذلك من الضجيج والتزاحم حتى أفسد البيع في بقية السوق.

همّتْ ألماز بالمغادرة، وقد وجدتْ في الصخب عذرًا يلائم مزاجها المتعكّر، لكنّها عدلتْ ما إن لمحتْ رامبو يصارع الحشود في طريقه للقساوسة، ومن خلفه جامي، يسنده كلما استدعى الأمر. سارتْ نحوهما فالتقوا جميعًا عند المبشرين. بادرهم رامبو بالترحيب، وهو يُعرّف بنفسه. بدا لافتًا لها أنه اختار اسمه الأوروبيّ، وليس عبد ربه كما اعتاد الناس عليه في هرر. كان يُوزّع بصره بين من بدا أنه رئيسهم، وبين آخر يصغرهم سنًّا لم ينبتْ شاربه بعد، وتعلو ملامحه مسحة وسامة لافتة.

شرع رامبو يسألهم عن الأماكن التي قصدوها، وتلك التي ينوون ارتيادها، دون أن يُخفي ضيقه بالزحام من حوله بالتأفف، قبل أن ينفد صبره فيضطر بين لحظة وأخرى إلى شتم الناس من

حوله وهم يُعيقون تواصله مع القساوسة، بعلوّ أصواتهم حينًا، وبمزاحمته حينًا آخر. لكنّه حين رأى أثر ذلك على وجوه القساوسة، عاد واعتذر لرجال الدين دون أن تنبسط ملامحه كلما التفتَ صوب الأهالي.

لم يتركهم رامبو إلا وقد سمع منهم التفصيل تلو الآخر عن رحلاتهم في الشرق والغرب. بدا مشدوهًا، وهو يتلقّى الحكايات الغريبة التي شهدها القساوسة في طريق دعوتهم، وكلما انحرف الكلام إلى موعظة دينية، أعاده رامبو إلى الوجهة التي يُحبّ؛ الترحال. كان لا يكفّ يميل برجال الدين جانبًا حتى ينفرد بما يسمع، حتى كفاه جامي ذلك وأصبح يحول بينه وبين المتطفلين.

حين واصل القساوسة أخيرًا طريقهم نحو الكنيسة، كانوا قد منحوا رامبو إنجيلًا فرح به كثيرًا، حتى أنّ ألماز بدتْ مستغربة وهي تسمعه يُتمتم بما يُشبه التمنّي لو أنّ بإمكانه أن يغدو مبشّرًا.

كان استغراب ألماز في مكانه، فالرجل الذي كان الهرريون يعدّونه مسلمًا أو يكاد، ها هو يتقرّب من القساوسة، بل ويتمنّى لو كان واحدًا منهم. لكنّ ذلك كان سيغدو مفهومًا بعض الشيء، إذا ما انتبهتْ إلى أنّه يحسد رجال الدين على ترحالهم الدائم، وليس على تمام إيمانهم. لم يكن في حقيقة الأمر ينظر إلا إلى تلك الأقدام التي تنعم بالسير في مجاهل جديدة، ولم يكن يتمنّى إلا السير في ركابهم، دون كثير اكتراث بالوجهة.

ولم تكن ألماز وحدها في تلك الحيرة؛ فقد وصف القسّ الذي

أهدى رامبو الإنجيل، مقدار سعادة الرجل بالكتاب المقدّس، حتى غلب على ظنّه أنه قد يصبح راهبًا عمّا قريب. لكنّ رامبو لم يذهب إلى الصلاة قط، ولم يمرّ من أمام الكنيسة إلا كما كان يفعل حين كانت جامعًا، رغم تهلّل وجهه كلما صادف مبشّرًا في طريقه، وهو الذي اعتزل كلّ أوروبي في هرر منذ قدم إليها. ربما كان من حسن حظ القساوسة حينها أنهم لم يقرأوا رسالته التي كتبها يصف لقاءه بهم والموعظة التي أمطروا بها المتحلّقين حولهم في السوق «**الحسن الحظّ، أنها الحياة الوحيدة التي نعيشها، وهذا واضح**».

كان هذا هو نفس الرجل الذي استطاع حفظ سور من القرآن يُلقّنها للصغار في العصريات متى ما كان رائق البال، وهو نفسه الذي بلغ به التعمّق في المعرفة أن أصبح يُجادل الهرريين في تفسير بعض الآيات، بعد أنّ كوّن تفسيره القرآني الخاص. ولم يتوقّف إلا حين كمنتْ له مجموعة من الموحدين وأوسعوه ضربًا بالهراوات. وحين سُئلوا لمَ لم يقتلوه، كان جوابهم الجاهز أنهم لا يقتلون المجانين. ولم يمرّ وقت حتى شهدتْ هرر مقتل أوروبيّ لم يراعِ ضوابط المدينة. من تلك اللحظة لم يعد لرامبو تفسيرًا يخصّه للقرآن، على الأقل، أمام الملأ.

كان القساوسة وألماز، وأهالي هرر من بعدهم، ربما بحاجة إلى العودة لأيام الرجل في موطنه، حين كان يُمضّي الوقت وهو يخطّ بالطباشير على مصاطب الحديقة العامة عبارات شتم لاذعة بحقّ الأديان. لكنْ حتى الذين تسنّى لهم ذلك أخفقوا في فهم الأمر على

حقيقته؛ فبعد أعوام، ستكتب إيزابيل كيف مات أخوها قدّيسًا، وهي تحكي ما نقله لها القسّ الذي زاره في أيامه الأخيرة حين أخبر أنّ رامبو مؤمن، وأنه لم يرَ في حياته إيمانًا كإيمانه.

لكنّ القسّ نفسه سيكون قد تجاوز عن تفاصيل مهمة؛ إذ وبمجرد أن أقام القربان، وجهّز الزيت المقدّس ليمسح به على الجسد المتهالك أمامه، أخذ رامبو يبصق القربان، ويشتم الممرضات والراهبات شتائم مقذعة. قبل أن يهدأ، فيُقبلوا عليه ليجدوه يُردّد كلمات إسلامية، ثم يتركها من نفسه، ويلتزم بما يُلقّن قبل أن ينقلب على كل ذلك مجددًا.

لن يمرّ وقت طويل، حتى يفقد رامبو مصدر متعته في مجالسة المبشّرين والطواف مع حكاياتهم حول العوالم المجهولة؛ إذ سيُصدر الإمبراطور مينيليك قراره بطردهم حين خشي التفاف الأهالي حولهم، وأثر معوناتهم في تطويع القلوب نحوهم. غادروا، لكن هذه المرة في جنح الليل، ودون الضجيج الذي قدموا به.

غضب رامبو قليلًا، ثم نسيَ الأمر كأنْ لم يكن. لكنّ ألماز توقفتْ عنده كثيرًا؛ فالملك الذي حوّل الجامع كنيسة، وامتنع جنده عن قتلها حين رأوا الصليب، هو نفسه من قتل أهلها بصلبانهم، ومن يطرد القساوسة الآن. لم تجد تفسيرًا لكل هذا إلا أنّ مينيليك لا يُحرّكه إيمانه، وأنّ الجندي الذي أنقذها، إنما فعل ذلك من تلقاء نفسه، ولهذا أخذها إلى مأمن ولم يتركها عرضة لرفاقه. بدتْ الأمور أكثر وضوحًا، فركنتْ إلى هذا الخاطر. لم تكن قد جافتْ الحقيقة،

ومع هذا، لو علم جامي بخاطرها هذا، لاستراحتْ نفسه، وقد آل الأمر إلى جانبه من جديد.

«صاحبك هذا مجنون.. بالكاد يمشي، ويُريد فعل كل شيء».

باغتها صوت جامي في السوق. جلس إلى جوارها، وانتزع حزمة قات، وبدأ في لوكها، قبل أن يواصل تذمّره من العمل مع رامبو، وكيف أنه اقتاده لبيوت ضربها الجوع ولم يُفلته إلا وقد أفرغ أكياسًا كثيرة من الذرة عند أبوابها، فيم لم يستفد جامي حتى من دعوات أصحابها التي ذهبتْ كلها لرامبو. لم تبتهج ألماز هذه المرة بما سمعتْ. بدا وكأنّ الشاب يُنفّس عن غضبه بالكلام دون نية للمغادرة، أو أنه أحسّ بأثر كلامه عليها فأصبح يُعيده في كل مرة يختلي بها. تركته هذه المرة يقول كلامًا كثيرًا دون أن تمنحه انتباهها. في المقابل، لم ينتبه جامي لانشغالها عنه، فقد كان الحديث إليها يملؤه بهجة ويُعميه عمّا سواه.

ما أحوجهما حينها إلى الانتباه؛ جامي وهو يتخلّى طواعية عن كل قوته ولؤمه وغضبه، بل ويتقلّب في ضعفه في وجودها. وألماز، حين لا ترى إلا ما تتمنى، بحيث تغيم المسافة عندها بين الحقيقة والخيال. يبدو غريبًا، كيف لا يتحقّق هذا الابتهاج إلا حين تكون الغلالة على الوجه تحجب الرؤية وتموّهها وتحرف حقيقتها. الحقيقة مزعجة، لكن الوهم جميل، يعافر الإنسان من أجل الحقيقة وعندما يصل إليها، يتمنى لو أنه لم يفعل، لو أنه بقي هناك، وسط أوهامه، حيث كان أسعد. لا أحد يعرف لماذا يكون الوهم في أغلب الأحيان

أجمل من الحقيقة، ربما لأننا من يخلق الأوهام، ولهذا نضع فيها كل ما تتوق إليه نفوسنا ويوافقنا، أما الحقيقة فمن صنع القدر، والقدر حرّ لا يمشي على هوى الإنسان. الحقيقة تجيء غالبًا ومعها قسوتها، لا أحد يعرف لماذا، لكنّ الإنسان يعرف كيف لا ينظر في عينها مباشرة، كيف يتفاداها، فيشوّش عليها بشيء من غبش الوهم، ليس لأنه لا يفضل الحقيقة، بل لأنه أضعف منها وأكثر هشاشة من أن يواجهها، وجميعنا معرضون لأن تكسرنا الحقائق. وهو ما ينطبق على ألماز وجامي، لا يقدران على الوقوف في وجه الحقيقة، بل ولا يعرفان أصلا أيّ حالة هي الأصدق لدى كل منهما، جامي في قوته ولؤمه وغضبه، أم حين يختار راضيًا أن يغدو أعزلًا من كل ذلك، وألماز إذا ما أرادات أن ترى الأشياء كما هي، أم حين تُسدل غلالتها غير عابئة بشيء. لا أحد منهما يعرف على وجه الدقة. كل الذي يظهر أنّ الاثنين كانا بهذا، قد اختارا أطول الطرق، وأكثرها وعورة.

«لماذا لا تتركه إذن؟».

بدا أنّ جامي بوغت بردّ ألماز البارد وهي تُقلّب الحِزم دون أن تلتفت إليه، وقد ضاقتْ بسيل من التشكّي. تلعثم وهو يبحث عن إجابة، ثمّ لمّا كاد يُخبرها أنه لا يود مفارقتها، أكملتْ كلامها:

«تستطيع العمل في أي مكان هنا. ليس شرطًا أن تُجهد نفسك معك».

بدا أنّ الأبواب قد سُدّتْ أمام الشاب، فارتدّ ينظر إلى الأرض،

ولمّا همّت ألماز بالكلام مجددًا وقد تيقّنتْ من ظنونها، جاء جوابه:

«بهذا سأخسر البقاء معكِ في البيت نفسه».

كان جامي من حيث لا يدري قد دلّ ألماز على الطريق المتوجّب سلوكه.

أنا مشّاء الطرق الكبيرة
عبر الغابات القزمة
وددت لو أكون الطفل المهجور
الخادم الصغير يجتاز الممشى وجبينه يلامس السماء

(١٣)

«الذاكرة.. ذلك الدهليز المخبَّأ داخل كل واحد منا، لا يعرف سوانا ما يوجد بداخله، وحتى الواحد قد تختلط عليه أشياؤه، بين الحقيقي وما سعى لأن يكون حقيقيًّا وما سعى لإنكاره كأنه لم يحدث. الشيء الغريب هو أننا لا نختار ما سيمكث فيه وما سيرحل، الغريب هو أنّ الإنسان لا يملك رفاهية انتقاء ذكرياته. هنالك ما رغبنا بقوة في الاحتفاظ به لكننا نسيناه، وهنالك ما نستميت بشدة لنسيانه، فيختار العيش في منتصف ذاكرتنا.

أنا لا أحبّ ذاكرتي، لأنها أسقطت مني مثلًا، كل شيء يتعلق بالرجل الذي تسبّب في قدومي إلى الحياة، وجهه، ملامحه أو صوته، ليس عندي لحظة واحدة أقبض فيها على ضحكته، أو لحظة عانقني فيها أو مسح فيها على شعري أو لمس بحنوّ وجهي، كما يفعل أي أب آخر. لا بدّ أنه فعل معي هذا، أليس أبًا؟ لكنّ هذا كله مضى إلى حيث تذهب الأشياء التي تسقط من الذاكرة. بالمناسبة هل يعرف أحد أين تذهب؟ لطالما تساءلتُ عن المكان الذي تقصده وتعيش

فيه، ثم انتهيتُ إلى أنها لا بدّ تموت. لا بدّ أنّ الأحداث تموت كالبشر. الذاكرة تجعل ما تريده خالدًا، وتموّت ما تريد، وأنا أكره سلطتها هذه. كل ما احتفظتْ به هذه الذاكرة المتسلطة عن أبي، هما الجمرتان اللتان كنت أراهما أحيانا في عيني أمي، كلما غبتُ عنها قليلًا وبقيتْ لوحدها. الذاكرة جعلتْ علاقتي بأبي تقتصر على دموع أمي، وقد لا يكون هذا عادلًا تمامًا. الذاكرة.. ذاكرتي تنتقي لي أشد الأيام إيلامًا وتبقيها عندها.

أنا الآن أريد أن أنسى ما تلقيته من إهانة من رجل أحببته. تمنيت لو أنّ عقلي لا يحفظ له بداخله إلا لحظة أمسك فيها يدي، ابتسم فيها لي، كلمني بنعومة، نظر لي بمحبة، اختلق الأسباب يوميًّا ليقف على بضاعتي، ثم تلك اللحظة، نعم، تلك اللحظة الفاتنة حين سأل فيها عن اسمي وأنا أجبتُ «ألماز» بارتباك. وسمعته بدوري كأنني لأول مرة أعرفه، ربما لأنني يومها أحببته، أعني اسمي، أنت لن تحب اسمك أيضًا إلا لو عنى شيئًا لشخص بعينه. كما أنّ الفقد يعلمك تقدير الأشياء، المحبة أيضًا تفعل الشيء نفسه.

حين أعود إلى ما جرى مع رامبو، ستطفو على الفور ذكريات القسوة وكلمات التحقير والنظرات غير المبالية، والدفع بعيدًا. سيخرج في وجهي فورًا صدر جامي اللامع وعضلاته المفتولة، سيخرج شرر العيون، الافتتان، الشهوة. ستخرج تلك الحادثة المقيتة التي أعادتْ لي تقززي من جسدي. لو قلت رامبو ستلوّح لي ذاكرتي حتى بالقطط المتشردة، وما تعنيه له، وسوف أراني هناك

مثل شبح شفاف يمكن أن تعبر اليد منه، لا أُرى. لا أُرى أبدًا مهما فعلت. ذاكرتي تحتفظ برسائله لأهله أيضًا. ليس الرسائل بحد ذاتها ولكن غيابي لسنوات عنها. رغم حضور كل شيء، البشر والحجر والحيوانات وكل شيء. لماذا تعاندني ذاكرتي هكذا؟ لماذا لا تفرغ نفسها من هذا كله، وتترك لي أشياء جميلة فقط؟ لماذا تتعنّت في الاحتفاظ بما يُشقيها، لماذا تشبهني إلى هذا الحد؟

هكذا صرتُ أخادعها، أراوغها، عبر الهروب منها. أتجنب مواجهتها بما قد يقودها للتحرك نحو إظهار الألم. لا أستفزها، لا بأمكنة ولا بأشخاص، ولا بهرر مكاني الذي كان أثيرًا. أصبحتْ لدى ذاكرتي مخزنًا هائلًا لهذا الألم. كل شيء في هذه المدينة أصبح يسقطني في حفرة عميقة من الذكريات القاتمة، وحياتي منذ نهاية الحرب وحتى الآن أصبحت مجرد هروب من ذاكرتي، عبر طرق ملتوية، مهما شقيت لسلكها يظل ذلك أفضل من الغرق في مستنقعات الماضي».

مع الفجر، كانت ألماز تحتّ الخطى صوب مزرعة قات في أطراف المدينة. أصبحتْ تقصد مزارع أبعد كي لا تصطدم بذاكرتها، تغيّرتْ المدينة كثيرًا بعد الحرب، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا لتهدأ الفتاة. يُفزعها أيّ التقاء بين مدينة تعيش فيها وأخرى تعيش بداخلها. لكنّ هرر تغيّرت بالفعل؛ وضع وافدون أياديهم على البيوت والمزارع التي قُتل أصحابها. وخفَت الأذان الذي كان يملأ الأسماع من المساجد المئة في مثل هذا الوقت. ولم تعد من حاجة لإخفاء وشم الصليب، وصارتْ تسكن بيت رامبو بعد أن كانت

تتسلّل إليه خلسة في الظلام. ومع كل هذا، لا يكاد يمر يوم دون أن يضعها في مواجهة حادة ونازفة مع المألوف، حتى تمنّتْ لو أنّها مثل البقية، إما طارئون على المكان، أو قادرون على إعطاء ظهورهم لكل ما جرى والبدء من جديد.

ما إن تبدأ الحركة في السوق وتنشغل ألماز بزبائنها، حتى يظهر جامي، مستغلًا وقت راحته ليجلس جوارها، ويبدأ في حديث لا ينتهي. يبدأ بيومه كيف استهلّه، وطباع سيده الصعبة، وإتقانه لحرفته الجديدة في فرز الحبوب والإشراف على تعبئتها وتجهيزها للبيع، وفرحته بما أصبح يكسبه نتيجة ذلك. يتوقف بين حكاية وأخرى ليسألها عن شيء عابر؛ كيف قضتْ ليلها مثلًا، أو حال السوق اليوم، أو متى ستعود إلى البيت. تُجيبه أحيانًا، فيما تكتفي غالبًا بهزّ رأسها، أو الغمغمة بكلام غير مفهوم، فيعود لقصته الطويلة. يفعل هذا كل يوم. لكنه يصمت حين يحلّ موعد عودته لعمله، ويدخل في طقس آخر؛ يظلّ يتأمل وجهها، وكأنه يحاول أن يمتلىء به قبل أن يُغادر. تضطرب حين يبدأ طقسه هذا، تحاول الانشغال عنه أكثر، تشيح بوجهها، تُنادي على بضاعتها، تدخل في نزاع مفتعل مع زبون. لكنها ما إن تعود حتى تجده على حاله نفسها. تكره فعله لأنه يجعلها تكره نفسها. ليت الأمر كان بيدها لما اضطرتْ حينها لكل هذا العناء.

حين فرغتْ من عملها قصدتْ البيت وقد أضحتْ أكثر عزمًا على ما نوتْ فعله. كان رامبو بدوره قد صرف العاملات في تعبئة

الحبوب بعد أن منحهنّ أجورهنّ، وجلس على أريكة بالقرب من جامي. سارتْ من فورها، وجلستْ بينهما تكاد تلتصق برامبو.

لم يكد جامي يُبدي استغرابًا حتى مرّرتْ يدها على رأس رامبو تُداعبه، قبل أن تُنزلها على خده وتقرصه بغُنج.

لم تعد تملك إلا المواجهة، وإرغام جامي على الاستسلام. تشعر به حاجزًا بينها وبين غاية لن تصلها إلا بإزاحته. ركنتْ إلى أنّ شيئًا من الألم سيكون كافيًا ليكفّ الشابّ عن أمله، قبل أن ينسى وينشغل بحياته عنها، عنهما بالأحرى.

كان تركيزها منصبًّا على جامي ترقب كيف يتلقّى فعلها، لكنّها بوغتتْ برامبو يُزيح يدها بعصبية، وهو يرسم على وجهه ابتسامة فاترة، قبل أن يقوم إلى ركنه، وهي تتبعه ببصرها، ويشرع في تجهيز أوراقه. حين عادتْ كان جامي يغلي في مكانه، وينتظر تفسيرًا، لكنها أمعنتْ في قسوتها وأشاحتْ ببصرها ثانية صوب رامبو، وهي تتعمّد أن تبدو غافلة عن كل شيء عداه.

حين قام جامي من مقعده غاضبًا يُطالع ألماز، كانت الفتاة ما تزال تُصوّب نظرها ناحية رامبو، الذي ما إن شعر بقيام خادمه حتى التفت ينظر إليه.

مرة أخرى، يتوقّف الزمن في لحظة فارقة، دون أن ينتبه أحد منهم أنّه يسلك الطريق الأكثر وعورة صوب أوجاعه. لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من أن يتخلّف أحدهم عن مواصلة السير، أن يتأخر حتى أو ينشغل قليلًا، فيُخلخل هذا التزامن في سوء التقدير،

لينجوا الجميع. كم تبدو اللحظة موغلة في الأنانية، بحيث لم يستطع أحد أن يرى إلا ما يُريد. الكلّ هنا كان طاعنًا ومطعونًا في الآن نفسه. بقدر ما يوغل في جراح غيره، ينزف بشدة. ألماز ساهمة تنظر إلى رامبو، في الوقت الذي كان هو شاردًا ينظر إلى خادمه جامي، والذي بدوره كان لا يكفّ يرفع بصره عن الفتاة.

نادى رامبو على جامي، فأعاد تحريك الوقت. طلب منه أن يرافقه إلى دردوا لأنّ آلام ساقه لن تُتيح له أن يبيع بضاعته دون مساعدة من خادمه.

لم يُثر طلب الرجل انتباه أحد، ولعلّه فعل ذلك بكل طاقته كي يبدو عاديًا. فليس من السهل على المشّاء الكبير أن ينكفىء يطلب العون في مسيرة أيام قليلة، وهو الذي أمضى عمره يقطع الأرض في كل الاتجاهات دون كلل.

بدأ ذلك باكرًا حين أراد أن يغادر شارلفيل إلى باريس، محمّلًا بأمنيات أن يلتحق بثوار الكومونة، ولم يكن حينها يملك قيمة تذكرة القطار، فتفتّق ذهنه عن حيلة مكّنته مما يريد؛ استهلّ رحلته ماشيًا حتى جاوز مدينته الصغيرة، فأخذ يتعلّق بالعربات المارّة، ويبتدر أصحابها بالحكايات، لينشغلوا عن رفقته أطول فترة ممكنة، قبل أن ينزل إذا ما ملّوه أو انعطفوا إلى وجهة أخرى. وسرعان ما يعود إلى المشي حتى يُصادف عربة أخرى. وما يزال يراوح بين المشي والتعلّق حتى يدخل الليل، فينزوي بين القرويين، يأكل معهم ويبيت إلى الصباح، ليُكمل طريقه حتى وصل باريس. ربما لم

يتوجّع رامبو حينها من السير لمسافات طويلة طوال ستة أيام، بقدر اضطراره إلى الكلام دون توقّف واختلاق الحكايات، وتحمّل تسلية غرباء لن يراهم مجددًا. ستمرّ أعوام قبل أن يعود المشّاء الكبير إلى شغفه، فيقطع المسافة بين ميلانو وبرنديزي سيرًا على الأقدام، لكنّه يتعرّض لإغماء فيدخل المستشفى، قبل أن يُعاد إلى فرنسا.

لعل رامبو بدا أكثر ارتياحًا حين لم يتوقّف أحد عند طلبه، فعاد إلى كتابته، وغادر جامي إلى مرقده واجمًا، فيما بقيتْ ألماز على سكونها بعض الوقت، قبل أن تذهب هي الأخرى، وتُفوّت ما انتظرته، تحت وطأة شعور بالذنب أو الغضب، أو الخيبة، لأنّ ما انتظرته لم يتحقّق كما أرادتْ من الأساس.

لكنْ هل كان سيخطر ببال رامبو أنّ متاعبه لن تتوقّف عند هذا الحد؟ كيف سيبدو ذلك الحرج العابر أمام ألماز وجامي، في مقابل عجزه التام الآن، وهو على نقالة يحملها ستة عشر هرريّ، ويقتربون من ميناء زيلع، حيث السفينة التي ستقلّه إلى مرسيليا. لم يُجرّب المشّاء الكبير يومًا أن يفقد قدرته على المشي تمامًا، أن يُصبح تنقّله عبئًا ثقيلًا ممزوجًا بالآلام التي تبدأ من الساق وتضرب في الرأس بكل شدّة. ومع هذا، فلم يكن أمام رامبو إلا إنكار ما يحدث، واستعجال عبوره، كحلمٍ يتبخّر بمجرد الصحو منه. لم تكن مطالباته المتكرّرة للحمّالين بتسريع الخطى، إلا طريقته في تجاوز عجزه. وكأنه حين يُغمض عينيه عن الشيء يأذن بزواله. بدا وكأن مجرد الوصول إلى مرسيليا، سيُعيده ذلك المهجوس بالمشي والقادر عليه قبل ذلك. لذا

لن يفهم مرافقوه سرّ تلك الضحكة المجلجة التي أطلقها الرجل المتوجّع ما إن لاح في الأفق ميناء زيلع.

في فمكِ سأكلّمكِ:
وسأظلّ أعصُر
جسدكِ، كمثل صغيرة يُنيمونها
ثملة بالدم

(١٤)

استند رامبو على ألماز حتى استقر على فرسه، فيما هي ركبتْ فرسًا آخر. كان جامي واقفًا على الباب يهزّ رأسه مع كل تنبيه يسمعه؛ لا تنسَ تسجيل الشوالات قبل إرسالها، إياك أن تسمح بتراخي العاملات، لا تنسَ إطعام القطط. حين بدأ المسير، لوّحتّ ألماز لجامي فرأتْ في وجهه غيظًا عجز عن كتمه، قبل أن يرسم ابتسامة خامدة، ويُسارع للدخول وإغلاق الباب خلفه. لا تستطيع أن تُنكر كم أشعرها ذلك بالابتهاج. ها هي الأمور تعود إلى طبيعتها من جديد، بعد أن مالتْ كثيرًا. تحرّكتْ قافلة صغيرة خلف فرسيهما، فطاردها الصبية قليلًا حتى شارفتْ على بلوغ السور. كانت ألماز تُنقّل بصرها في كل اتجاه، تمنح الناس فرصة أن يروها رفقة رامبو أخيرًا. ولكم كانت سعادتها غامرة حين اخترقتْ القافلة السوق، فتوقّف كل شيء ليرقب مرورها. من مكانها رأت الأعناق تميل صوبها، والوشوشات تنشغل بها. كان ذلك سيُربكها لو حدث في هرر القديمة، حين كان أكبر همّها ألا ينكشف غطاء رأسها. أما

اليوم، فلا شيء يبعث على الحبور مثل أن يراها الجميع، حاسرة، رفقة رجلها في سفر، على جوادّين متحابين.

مال عليها رامبو وابتسامة تعلو وجهه. بدا وكأنه قرأ خاطرها. تُحبّ كيف تُصبح بمعيته كائنًا سهلًا طيّعًا مكشوفًا. تُحبّ أكثر كيف يتفادى أحيانًا معرفته تلك، ليتظاهر بعدم الفهم، ويترك لها فرصة أن تقود الأمور إلى أيّ وجهة تشاء.

حين تجاوزا سور جغل وبدا الأفق أمامهما منبسطًا بلا نهاية، وهواء رقيق يداعب وجهيهما، بدأ رامبو يُدندن أغنية هررية قديمة، لا تدري متى سمعها وتمكّن من حفظها:

«من أين تأتي السماء بكل هذه النجوم
وكيف تحتفظ بها معلّقة كلّ هذا الوقت
لولا هرر لضاقت السماء بمكانها الثابت
من قال أصلًا إنّ النجوم متعلّقة بالسماء
وتحت أنظارها هرر».

انتقلتْ النشوة لألماز، فبدأتْ تُشاركه الغناء، وترفع صوتها وتمطّه كلما وصلت لعبارة «وتحت أنظارها هرر»؛ فيضحك رامبو حين ينتبه كيف تسعى الفتاة إلى تخريب اللحن، وفرض آخر ارتجالي.

طال انتظارها لضحكته القديمة حتى ظنّتها غادرتْه بلا عودة، لكنّ ها هي تعود. تُحبّها لأنها تُرجعه طفلًا، لا ينشغل إلا بلحظته، ولا يُلقي بالًا للوقت في وجودها. تحمد الرب أنّها لم تركن إلى

اليأس، ها هو رامبو يرقّ لها بعد أن كاد يُهلكها صدّه. الآن يبدو وكأنها بدأت تقطف ثمرة كل ما فات من صبر مرّ. بعودة رامبو ستعود إليها هرر بأكملها كما تمنّتْ وأكثر.

حين بدا أنّ الدوابّ تعبتْ، أمر رامبو الجميع بالتوقّف للراحة. سحب ألماز من يدها وانزويا عن البقية قرب شجرة كثيرة الأغصان. لا تُصدّق ما يجري. ترى في وجهه جوعًا إليها، فيرتعد جسدها. ينتبه لبرودة يدها، فتسحبها محرجة، وتدير ظهرها له. يقترب منها، يزيد خفقان قلبها، تشعر بأنفاسه الحارة قرب رقبتها. تجهد كي تتماسك فلا يبدو اضطرابها، لكنّها تفشل.

ها هو الجسد الميّت يستعيد الحياة. تشعر بكل جزء فيه ينهض من سباته المقيم وينفض عنه اليباس. تشعر بشفتيها، جبينها، يدها، وصدرها الذي كانت تكرهه. قيامة كاملة لجسد واحد كان وحيدًا قبل لحظة البعث هذه.

لثمَ رقبتها، فكادتْ تتداعى. طوّقها من ظهرها وهو يلتصق بها فغدتْ كالمحمومة ترتجف وتتعرّق دون أن تنطق بحرف. همسَ بكلمات في أذنها، فكأنه صبّها في قلبها تمامًا. كانت تُطارد كلماته دون أن تُمسك بها كلها. تُريد كلّ الكلام لكن كلمة كلمة. لا تودّ إضاعة حرف دون أن تعصر لذته كاملة في لسانها، وتُمرّره لجوفها بكل البطء المقدور عليه. تُريده أن يمدّ الكلمات بحيث يسعها أن تتمدّد في نعيمها العمر كله وهي تسترجعها كلمة تلو أخرى.

سمعته يقول أشياء من قبيل؛ انتظرتُ طويلًا.. ولا أصدّق

أخيرًا.. عديني.. لا تدري بماذا يجب أن تعده، لكنّها هزّتْ رأسها موافقة، بعد أن حاولت أن تُجيب دون جدوى. خطر ببالها أن تطلب منه أن يعدها بدوره هو الآخر، لكنّها فطنتْ إلى تحقّق كل أحلامها بما يحدث الآن، بحيث لم يبقَ شيءٌ مؤجل. ليتها تستطيع أن تطلب وعدًا يخصّ الفائت من العمر، بحيث تثأر لأيام انتظار هذه اللحظة العامرة.

ارتدتْ ملابسها على عجل، وهي تتلفّتْ لا تكاد تُصدّق ما جرى. تلهث مضطربة، فيما تعلو وجهه ابتسامة رضى، وخدر يجعل من حركته بطيئة، أو هكذا ظنّت. يُعيد تثبيت زنّاره حول خصره، وهو ساهم فيها، بينما تتجنّب نظراته، وما إن تعود حتى تجده ما يزال يُطالعها.

أجلسها إلى جواره، وشرع يكتب رسالة إلى أمه وأخته. من مكانها كانت قادرة على رؤية كل حرف بوضوح. ابتدر كتابه كما العادة: إلى صديقتيّ العزيزتيْن، قبل أن يحكي لهما كيف اضطر إلى سفر عاجل. كانتْ تُمسك بعود جاف تحفر به خطوطًا في الأرض، فيما كيانها كله مع أحرف الرسالة. تسترق النظر إليها، وتتحايل كي لا تُضبط متلهفّة عليها.

عاد قلبها للخفقان، حين بدأ يصف مسار الرحلة، وكيف خرج على جواد، فيما الآخر.. كادتْ تصرخ حين كتب اسمها. لم تعد تسترق النظر الآن، بل مالتْ بكلّيتها وهي تتثبّتُ مما قرأته. نعم هو اسمها. تغيم الكلمات وتتضبّب، تفرك عينها، تعود لأول السطر، وما إن تصل لاسمها حتى يعود الغيم.

توقّف عن الكتابة فجأة لينظر إليها، وكأنه يُشاركها الاحتفال بلحظتها. وكأنه يُخبرها بأنّ لكل شيء وقت اكتمال، لا تُجدي كل المحاولات لاستعجاله. ليته أخبرها بذلك منذ البدء. ليته لم يتركها وحيدة في وجه ظنونها التي ذهبتْ بها بعيدًا. وليتها كانت قادرة على رؤية كل ذلك قبل حدوثه.

حين عادتْ القافلة للمسير، كانت ألماز ما تزال بروحها تحت نفس الشجرة كثيفة الأغصان، تسترجع ما جرى من لحظة ما سحبها رامبو من يدها الباردة، إلى حين ما قطع كتابته لعائلته كي ينظر إليها.

بقدر ما انتظرتْ لحظة أن يكتب عنها، تتمنى الآن لو يعدل عن إرسال الرسالة فتحتفظ بها. تشعر أنها المعنية بها أكثر من الآخرين. أن يكتب عنها أخيرًا، يعني أن يراها، أن ينتبه لوجودها، وهي التي ما كفّتْ تؤمّل النفس بقدوم هذا اليوم.

ما إن بلغوا دردوا حتى وجدوا جامي في انتظارهم. ابتلعتْ صدمتها حين لم تلمح أيّ استغراب على ملامح رامبو.

أعان جامي سيده على الترجّل عن فرسه، وانخرط الاثنان في توجيه العمّال لتفريغ المؤن. ظلّتْ في مكانها دون أن يدعوها أحد. شعرتْ بنفسها وقد عادتْ غير مرئية، الجميع يمرّون جوارها يكاد الواحد يصطدم بها، دون أن يلتفت صوبها. حتى رامبو، لم يرفع بصره عن جامي. بدا وكأنها تلاشتْ فجأة من أمام ناظريه. شعرتْ بالغضب يتركّز على جامي، فما إن ظهر حتى استحالتْ هباء. نزلتْ

عن فرسها، وشقّتْ طريقها صوبه، وهي لا تدري كيف ستفرغ حنقها عليه. ما إن وقفتْ أمامه حتى صرختْ في وجهه بملء صوتها. كادتْ تُجنّ حين بدا وكأنه لم يسمعها. ليس هو فحسب؛ التفتتْ حولها، كان الجميع على انخراطهم نفسه في العمل، فيما رامبو يحثّهم على الإسراع في الحركة. أرادتْ مدّ يدها للطم جامي، لكنّها كانت أثقل من قدرتها على تحريكها. انكفأتْ تبكي، ويعلو صوتها في البكاء، دون أن يُغيّر ذلك من الأمر شيئًا.

دوّتْ فرقعة فصحتْ ألماز من نومها فزِعة بجبين متعرّق، والألم نفسه في معدتها حيث تشعر معه أن يدًا تقبض عليها وتعصرها. لم تستوعب ما يجري. استغرقها الأمر بعض الوقت حتى تُدرك أنها كانت تحلم. أرادتْ النهوض لكنّ خدرًا في يدها أقعدها. اختلط الأمر عليها ثانية. لقد تعدّت هواجسها حدود اليقظة، ثم ها هي تدخل إلى أحلامها أيضًا، ما تتوق له في الصحو، تتوق له في المنام، وما يوجعها هنا يتبعها حتى هناك. ظلت لوقت تتلفت في الظلمة حولها، شاعرة بتعب كبير، كأنها انتهت توًا من الصعود إلى جبل، صدرها يعلو ويهبط وبالكاد يمر الهواء إلى رئتيها، الضيق يمسك رقبتها ويخنقها، وخشيت دخولها مرحلة جديدة من القلق. كانت تهرب إلى النوم على الأقل، تلك الساعات من الموت المؤقت حيث لا ألم فيها، ولكن الآن ماذا؟ هل ستهجس بما تهجس به صاحية ونائمة؟ هل ستتألم في كل مكان؟ هل كتب عليها من الآن فصاعدًا ألا تعرف الراحة أبدًا؟

قامتْ بمشقة وأشعلتْ القنديل، لتجد جامي يكنس بقايا إناء

مبعثر على الأرض، وقد ثبّت قنديله على الجدار. وما إن لمحها، حتى استبدل بتصنّع ملامحه القلقة بأخرى غاضبة، وغادر من أمامها إلى مرقده في الطابق السفلي. لم تكن قد تخلّصتْ تمامًا من ثقل ما رأته في منامها، حتى تسأل الشاب عما يفعله في الطابق العلوي في هذا الوقت من الليل. لكنّها فيما بعد، ستستعيد ما جرى في تلك الليلة بذهن بالغ الصفاء.

حين طلع الصباح، كان رامبو بمعونة جامي، قد أعدّ العدّة للسفر إلى دردوا. استقلّا عربة يجرها حصان، وانطلقا تتبعهما عدد من الجمال محمّلة بشوالات البنّ.

كانت ألماز تراقب بانكسار كل ذلك من مكانها أمام الباب، وهي تستعيد المرة الوحيدة التي التفت فيها رامبو لها، وسط انشغاله ببضاعته، ليطلب منها ألا تنسى إطعام القطط في غيابه.

آه أيتها الروح العزيزة المسكينة

ألن نكون هذه المرة

أضعنا الأبدية!

(١٥)

رقّ جامي للحزن في عينيّ ألماز ونسي غضبه. كانت واقفة على الباب في شرود تتلقّى تعليمات رامبو وتهزّ رأسها، فيما القافلة تهمّ بالمسير. أنّبه قلبه، وهو يرى ما ظنه مآل قسوته على الفتاة. لم يكن يريد لغضبه أن يرتدّ عليها بكل ذاك الحزن. أراد فقط أن يحتجّ على فعلها الغريب كيلا تعود له. أراد بالأحرى أن يُخبرها كم يُحبها ولا يُطيق أن يجدها تميل لغيره. فيما القافلة تتحرّك تمنى لو يستطيع أن يُعلم سيده برغبته في البقاء قرب حبيبته، باسترضائها. لكن هيهات له ذلك وسيده بالكاد يتحرّك دون أن يستند عليه، حتى بعد أن ارتدى الجوارب الطبية التي طلبها من أمه كي توسّع أوردة قدمه. لم يملك إلا أن يُلوّح لها بوجهٍ مبتسم، لكنّها لم تنتبه لكل ذلك، كانت ساهمة في رامبو الذي بدوره التفت صوب جامي ليُعيد دون قصد تلك اللحظة الفارقة، حين تدور الأعين في الاتجاه الخاطىء، بحيث تغفل عمن يُريدها وتواصل مطاردتها لمبتغى بعيد. لم يتحرّك الوقت مجددًا إلا حين أوغلتْ القافلة في المدى.

«كثيرا ما ابتعد. كان كثير السفر. فهمت فيما بعد أنه يكون تواقًا إليه، وأنا لم يكن يهمني كم سيبقى، خروجه من هرر بالنسبة لي هو دائمًا انفصال قطعة مني عني إلى حين. قطعة مني، أنا لست منها. هذا صعب، ولكنه أمر ليس بيدي. لو كان ثمة ما علمني إياه سفر رامبو الدائم فسيكون حتمًا ما بتّ أعرفه الآن: ليس مع الفراق ألفة. كل مرة كانت كما لو أنها المرة الأولى. لا يمكن لأحد التعود على فراق شخص عزيز. كل مرة يتم دوران الوجع من البداية، بنفس المشاعر القاسية، وبذلك الشعور القاتل بالفراغ. ليس الفراغ بسبب الوحدة، بل فراغ الجسد من روحه. أنا هكذا أصبح فزاعة من خشب تحطّ عليها طيور الوحشة في غيابه. إذا ابتعد تتوقف حياتي وتُحجم عن الحركة. أواصل فعل ما أفعله كل يوم ولكن دون وعي تام. كأن امرأة أخرى تتحرك في مكاني وتعيش حياتي، وأنا مركونة في مكان قصيّ أراقبها بعينين حزينتين، بقلب يتشظى لحالها، لا أفعل شيئًا حقيقيًا سوى الانتظار. أعدّ الوقت، ومع كل غروب يزول حجر من جدار البُعد، فأتخفف منه. هكذا تمضي الأيام حتى يعود، مع أنه لا يلتفت لي لا وهو يمضي ولا عندما يعود. كل ما عشته، عشته لوحدي، كمن ينفق عمره ودمعه وفرحه وحزنه وكل ذرة فيه سدى. هكذا كل شيء للريح لتذريه، غبار، مجرد غبار يتناثر في الهواء.

ندمت؟ ولكن كيف يندم الواحد على أخطاء لا يمكن حصرها؟ لو أنه خطأ واحد يمكنني تسميته الآن سأقول أني ندمت، أريد أن أندم، أحاول أحيانًا ولكني كلما حاولت أجد أنّ كل خطأ يقودني

لخطأ وراءه، وهكذا سلسلة طويلة. عندما يُهزم الواحد إلى هذا الحد يتحصّن ضد الندم. كيف؟ لا أظنّ الفريسة بينما تلفظ آخر أنفاسها بين أنياب وحش ستندم أنها قطعت هذا الطريق وليس ذاك. ستفكر في أشياء أخرى. ولكن ليس الندم من بينها. فقد انقضى الأمر».

كبر حزن ألماز حين غابتْ القافلة عن أنظارها. ظلّتْ لآخر لحظة تنتظر أن يلتفت لها رامبو ويقرأ شيئًا في عينيها. لكنّه عوض ذلك، وما إن فرغ من تنبيهاته، حتى انشغل عنها ولم يعد يراها. أوجعها أنه كان يمنح جامي اهتمامه في قلب ذاك الانشغال. أوجعها أكثر أنه كان يفعل ذلك بحنوّ. ومع هذا، لا يكاد يهتزّ يقينها أنّه لا محالة، سيعود إلى ضجره وينقلب على الشاب، دون حتى أن يحدث شيء يبرّر ذلك. منحها هذا الخاطر طمأنينة. أقفلتْ الباب عليها، ودلفتْ إلى الداخل وقد بدأ حزنها يقرّ بعد أن كان يتلاطم دواخلها.

بدا أنّ ألماز قد ذهبتْ بعيدًا في أمنياتها، رغم أنه أُتيح لها هذه المرة أن ترى رامبو عن قرب؛ فالرجل الذي حمل ضجره بداخله، حتى قبل أن تطأ قدماه هرر، كان يعرف ذلك عن نفسه فيردّد أنه ضجِر غالبًا، وأنه لا يعرف شخصًا أكثر ضجرًا منه، وأنه ضجِر بطريقة لا توصف. لكنّ بوادر ذلك تعود عميقًا إلى نشأته المبكرة، فبعد أن كان في ذروة تفوّقه الدراسي، قرّر ودون سابق عزم أن يتخلّف عن سنته النهائية، ويُبدّد في الهواء كل تعبه في السنوات المنصرمة. ثمّ لمّا انخرط بحماس في المسرح البلدي، وتدّرج في دروسه، كفّ فجأة، وهو يُخبر أقرانه أنه لا يرغب أبدًا في دخول المسرح. والرجل الذي اشتهر بالغريب من الملبس، انتهى به الحال إلى قطعتين من الكتّان

الأبيض خاطها بنفسه. ثم اكتشف فجأة أنه خُلق ليكون صحفيًا، قبل أن يتراجع ويُصحّح حلمه ليبدأ في تعلّم الموسيقى، حتى أجبر أمه على استئجار بيانو بعد أن رأته ينحتُ أثاث البيت في محاولة يائسة لصنع واحد يتدّرب عليه. كل تلك العزيمة لم تكن إلا فورة خدّاعة، له قبل أمه، فقد ترك الموسيقى خلف ظهره كأن لم تكن. فعل ذلك بغتة، مرة وإلى الأبد.

وفي هرر خطر له أن يصبح مستكشفًا، ويُدوّن فتوحاته في كتاب يروج في أوروبا ويُصبح حديث الناس، لكنّه ورغم سفره الدائم صرف الفكرة تمامًا. ثم صحا على رغبة عارمة في الحصول على كاميرا تصوير، فأرسل يُلحّ على أمه ويستعجلها حتى أرسلتها أخيرًا. فرح بها كالطفل، والتقط صورة لنفسه، وأخرى لهرر، قبل أن تغدو عبئًا لا يعرف كيف يتخلّص منه. وكم كانت سعادته كبيرة حين وجد طريقة ليبيعها في عدن، ويُنهي هوسه المفاجىء بالتصوير، وكأنه ما وُجِد أصلًا.

الأمر نفسه تكرّر كثيرًا مع مهن عدة أراد تعلّمها وجلب كتبًا لهذه الغاية، لكنّه لم يُتقن شيئًا منها. لذا حين سيغادر رامبو هرر للمرة الأخيرة، سيكون قد ترك خلفه أكوامًا من الكتب؛ مصوّر المناشير الآلية في الزراعة، دليل النجّار، بحث في علم المعادن، قبطان السفن البخارية، الآبار الارتوازية، الوجيز في صناعة العجلات، الوجيز في الدباغة، صناعة الخزف، والشمع، والطابوق. هذه الكتب التي تُطالعها ألماز الآن، وهي جالسة على كرسيّه، تتبع ببصرها الحبر

يكاد يجفّ بين شقوق الطاولة، وتستعيد كيف ذهبتْ في عماء بعيد من حيث كانت تظنّ أنها ترى كل شيء بالوضوح اللازم.

رأتْ ألماز رامبو عن قرب هذه المرة، لكن دون أن تُحيط بكل ما يمكن للقرب أن يفعله. فات الفتاة أنها بالاقتراب إنما تُضيّع على نفسها رؤية الصورة الكبيرة، وهي أنّ الرجل وطوال حياته لم يقم بشيء كان ينتظره منه الآخرون. ولم تكن علاقته بجامي استثناء من كل ذلك.

لذا حين يعود الرجلان من دردوا، سيكون هاجس ألماز أن تختبر مبلغ آمالها من خلال الطريقة التي يتعامل بها رامبو مع خادمه. لكنّها لن تفهم ما يجري، وستركن إلى أنّ المزيد من الوقت كفيل بتحقيق ذلك.

جامي بدوره أقبل على الفتاة بكل أشواقه التي ادخرها في رحلته. ابتسمتْ له، فاندلق يعتذر ويعد بعدم إغضابها مجددًا. سألته عن سيده، فانشرح وهو يحكي كيف بات يعتمد عليه، ليس في الحركة وحسب بل في عموم تجارته، وكيف أغدق عليه العطايا نظير ذلك. انتبهتْ ألماز كيف لم يعد جامي يرى رامبو مثارًا للسخرية. بدتْ ملامحه ودودة ويغمرها الامتنان وهو يتحدث عنه. اغتاظتْ قليلًا، لكنّها عادتْ لتعتقد أنّ ذلك أفضل، طالما ستضمن الصدمة لطمة أكبر لجامي.

انخرط الشاب أكثر في تجارة سيده، فخفّ قدومه إلى السوق. ارتبكتْ ألماز لا تدري أتفرح بتخلّصها من قعدته الطويلة جوارها

وتحديقه المستمر في وجهها، أم تستاء لأنّ رامبو وجد في جامي أنيسًا أكثر منه خادمًا ومعينًا. ومرة أخرى عادتْ آمالها لتغذّي صبرها وتقوّيه. لكنّ كل ذلك بدا وكأنه انهار فجأة، حين رجعتْ إلى البيت لتجد الرجلين متقاربين في جلستهما وغارقين في الضحك. اضطربتْ. فكّرتْ في الصعود لغرفتها، لكنّها عدلتْ، قبل أن يخطر لها أن تتجه صوب رامبو وتفتعل غنجًا وهي تُقبّله. لم تكن قد حسمتْ أمرها وهي تخطو صوبه. كانت تخشى أن يعاود تجاهلها، لكنّ شيئًا داخلها قذف بها لتُنجز الأمر. لم تكد تفعل ذلك حتى فوجئتْ برامبو يدفعها وهو ينهرها ويسأل متى ستتوقّف عن الحماقات. بدا وكأنّ الوقت قد تجمّد حينها، فاحتفظ كل واحد من الثلاثة بملامحه ثابتة لبعض الوقت؛ جامي في خليط من صدمة وغضب، ورامبو أقرب ما يكون إلى الاشمئزاز، فيما الفتاة غارقة في حرج وانكسار.

«لن يكون من الغريب في شيء إن قلت إنني حاولت الدفاع عن منطقتي بجانب رامبو من اقتراب جامي. حاولت ولم أعدم السبل، حتى أنني تجرأت على فعل أشياء لم أكن أظنني قادرة على فعلها أمام الرجل سابقًا. يمكننا اكتساب الشراسة في رمشة عين، إذا تعلق الأمر بشيء نظنه لنا. والمرأة أكثر من الرجل، أقرب لفقدان عقلها إذا أحبّت. وأظنني قد فقدتُ عقلي في أحيان كثيرة لأقوم بكل تلك الحماقات التي لا تتوافق مع طبيعتي وهو ما أدهش جامي، لكنه لم يدهش رامبو بالقدر نفسه. كأنه كان يتوقع بسيري في طريق التعلق به، أنّ نقطة الوصول ستكون تلك، بل وأسوأ. لم يندهش لكن

محاولتي في استمالته مجددًا وإبعاد جامي عنه، جعلته ينفرني أكثر. لم أكن أعرف ما الذي جرى معه، ولماذا تغيّر على ذلك النحو الفجّ والمريع. كان جيدًا وانقلب. ما الذي يدفع الواحد لينقلب هكذا؟ لكن حين أعود وأفكر بطبيعته المتغيّرة على الدوام، مزاجيته وملله السريع من كل شيء، يعاودني هدوئي الذي سرعان ما يتبدّد ما إن أراه يتودّد لجامي أو يضحك معه، بينما لا ألقى منه سوى الكلمات الغاضبة والملامح المتجهمة. لماذا لا يكون التبدّل إلا من نصيبي؟ أظنه الوقت الذي بدأتُ فيه في الشعور بعمق، أنّ علاقتي به قد ذهبت في اتجاه مغلق، لا عودة فيه ولا رجوع، وأنّ ما تغير لم يتغير فحسب بل قد يكون انتهى».

حين قام رامبو بصعوبة إلى كرسيّه، وهو يلعن قدمه الخرِبة، تحرّك الوقت، فاستفاقتْ ألماز مما حلّ بها ولملمتْ خيبتها، قبل أن تلمح في وجه جامي شيئًا لم تجد له تفسيرًا في البداية. لم يعد غاضبًا ولا مصدومًا، ربما كان أقرب إلى الشماتة من أيّ شعور آخر.

أبكي..

رأيتُ الذهب

ولم أرتشف منه قطرة واحدة!

(١٦)

تتعالى ضحكات رامبو دون أن يفهم الحمّالة شيئًا.

كان يُفترض بالقافلة أن تتوقّف للراحة عند مدخل زيلع، غير أنّ صاحبها هدّد عمّاله بحسم أجورهم إن لم يواصلوا حتى المرفأ، ثم ها هم يرونه يضحك بملء صوته حين لمح السفينة الرابضة على الرصيف.

عاد الحمّالون إلى هرر، لكن هذه المرة على مهلهم، دون أن تطالهم سياط اللعنات والتهديد ليزيدوا من سرعتهم. في الطريق، وبقدر راحتهم من عنَت الرجل، افتقدوا جنونه الباعث على الطرافة، وغشيتهم رتابة المدى المتوجب قطعه نحو مدينتهم دون أمل في انقضائه سهوًا بطباع الأوروبيّ.

بقي رامبو على الرصيف يتلهّف لسماع صافرات انطلاق السفينة صوب مارسيليا. كان يشعر بابتهاج وخفّة روح. حتى أنّه تمنّى لو كان بمقدوره أن يرقص على ضفاف البحر الذي يعرفه

تمامًا. لكنّ عزاءه أنّ وجع ركبته خفّ كثيرًا، وكأنّ مجرد قرب الإبحار كان بمثابة مخدّر فاعل.

تشاغل في انتظار ذلك بالتأكد من حصيلة زنّاره الممتلىء، قبل أن يُخرج رسالة أمه الوحيدة، ذات لطخة الحبر على طرفها، ويشرع في قراءتها. بدا رامبو كمن يشحن عاطفته تجاه أمه أو يستعيدها، أو حتى يبتكرها، وهو العائد إليها رغمًا عنه. كان يتهيأ لانتفاء المسافة التي ضمنتْ اشتياق كل واحد منهما للآخر، وقبل ذلك أزاحتْ ثقل حضور الأمّ كرقيب ومقوّم صارم، وحضور الابن كمشروع هرب محتمل. أما وهو يوشك على لقائها من جديد، فكيف يتفادى ألا يعود كل شيء إلى حاله قبل الرحيل. يُعيد قراءة الرسالة الوحيدة التي احتفظ بها دون كل الرسائل، وكأنه خبأها لمثل هذا اليوم، ليمتلىء بكلماتها المعاتبة، لكنّه عتاب الأمهات الخارج من محبة عميقة.

شعر بثقل الوقت، فتلفّتَ حوله. بدا غريبًا ألا يجد الناس متزاحمين عند مدخل السفينة. مرّ عامل أمامه فسأله عن موعد الإبحار ليصدم بخبر تأجيل الرحلة حتى ينتهي إصلاح عطل طارىء. تبدّد ابتهاجه وزالت خفّة روحه، وعاد يشعر بوجع ركبته أقوى مما مضى.

هي الركبة نفسها التي لا تكفّ تعيقه الآن عن متابعة عمله، فيعتمد أكثر فأكثر على خادمه جامي الذي ترك ألماز تغادر إلى غرفتها دون أن يستوقفها بعد الذي فعلته. بل لو كانت ظلّتْ مكانها لهرب هو. هزّه كيف قوبل اندلاقها على رامبو، كيف بدتْ عزلاء من

كبرياءها الذي يعرفه، وتمنّعها، والرهق الذي يتطلبه التفاتها. بدا وكأنه يراها للمرة الأولى، وكأنها شخص آخر غير الذي قضى عمره يتوسّل رضاه دون أن يناله. تفاقم اضطرابه؛ احتاج في البداية أن يتيّقن مما جرى أمامه، ثم يحاول فهمه، وها هو الآن عرضة لسهام حزن عليها وعلى نفسه، تستحيل مع الوقت إلى غيظ وغضب. تضربه الإهانة في صميم قلبه، وهو يرى أغلى أمانيه مبذولًا للغير دون أن يجدوا فيه ما يستحق. كان موجعًا أن تظهر أحلامه السامقة وفيرة قريبة لآخرين، ثم لا تنال اهتمامهم. يشعر بعينيه وقد انقشع عنها حجاب لطالما حرمها أن ترى الأشياء على حقيقتها. يشعر وكأنه استفاق للتوّ من سبات دام عمرًا بأكمله. ويشعر بالحزن لأنّ كل تعب الطريق كان مهدورًا دون جدوى، ولأنه دفع أثمانًا مكلفة دون أن يشتري شيئًا ذا قيمة.

عند هذا الحد بدا أنّ جامي التقى مع ألماز في الأحلام المغشوشة، تلك التي تتسلّل إلينا من الآخرين فنظنّها ملكنا، أو التي يخطف بريقها أبصارنا فيستحيل علينا رؤيتها على حالها الصحيح. لكنّ هذا الالتقاء لن يدوم طويلًا، إما لأنّ جامي إذا فتح عينيه لا يُعيد إغماضها، أو لأنه لا يملك من الآمال ما يجعله يسلك الطريق ذاته بغية الوصول لوجهة مختلفة.

اختنق بأفكاره قبل أن يجد خلاصًا في صوت رامبو ينادي عليه.

لكنّ ألماز لم تجد من يُخرجها مما هي فيه. انكفأتْ على نفسها، تلعن حظها تارة وغباءها تارة أخرى. لكنّ اللعنات بعد ذلك

انصّبتْ حممًا على رامبو الذي لا تكاد تجد له عذرًا حتى يبدّده من جديد. تستعيد الموقف مرة تلو أخرى، فتشعر بالحريق يأكل صدرها غضبًا وحنقًا. حتى جامي الذي أرادتْ أن تُزيحه عن طريقها، حيّرها وهو ساكن ينظر إليها دون أن تفهم إن كان غاضبًا أم مبتهجًا أم لا باليًا. تشعر بصَغار يغمرها من رأسها إلى أقدامها. تتمنى لو ماتت قبل أن تُهدر كرامتها بمحض اختيارها. ازدحم رأسها بالأفكار كيف تنتقم لنفسها؛ خطر لها أن تغادر وتسكن في بيتٍ وحدها، لكنّها خشيت ألا ينتج عن ذلك شيء. انتبهتْ أنها لا تودّ الانتقام بقدر ما تريد أن تُعلن احتجاجًا تحصل بعده على اعتذار يحفظ كرامتها. ساءها هذا الضعف الذي بلغته، ساءها أكثر أن تكون واعية به دون أن يُحرّك فيها شيئًا. كيف استقرّ بها الحال ألا تجد حياتها إلا متصلة أو مستندة على رامبو؟ كيف لم تعد كافية إلا بغيرها، يمدّونها بأسباب ابتهاج منذورة بوجودهم لا غير؟ ما أسوأ أن يكون الواحد غير كافٍ وحده، أن يبذل نفسه بغية ملاقاتها عند الآخرين. ثم ينتهي به الحال وحيدًا، دون نفسه ودون الآخرين.

هنا عادتْ الفكرة الأولى أكثر قوة؛ ستغادر وتترك رامبو لشأنه، ستتركه للأبد، وسيأتي الوقت الذي يشعر فيه بفداحة فقده. وحتى إن لم يأتِ، لن يغيّر ذلك من الأمر شيئًا. سترحل لتستعيد نفسها وليذهب الرجال جميعهم إلى الجحيم. زفرتْ بتلك الفكرة فسكنتْ نفسها قليلًا، وأدركتْ أنها أحسنتْ الاختيار. بدأتْ على عجل توضّب أغراضها، لكنّها انتبهتْ أنها بحاجة لإيجاد بيت قبل

المغادرة. لم يُثنها ذلك إلا لحظات، فعادتْ أكثر تصميمًا في لملمة أغراضها على الأقل لتكون جاهزة متى حان أوان الرحيل.

أعان جامي رامبو على تهيئة مرتبة يستند طرفها على جدار في زاوية الطابق الأرضي تُطلّ على العاملات في تعبئة شوالات البنّ في باحة البيت. وتستقر أمامها طاولة خشبية واطئة تحمل الدفاتر والأقلام. بدتْ فكرة ملائمة، ما إن مدّ رامبو عليها قدميه، حتى تخلّص من عناء الكرسيّ الخشبي، وتوجّع ركبته مع كل حركة.

حين نزلتْ ألماز من غرفتها، كان جامي قد ذهب للباحة يُشرف على العاملات عن قرب، فيما انشغل رامبو في كتابة رسالة جديدة. أخذتْ وقتًا حتى تمكّنتْ من استجماع قدرتها لتبدو أكثر تماسكًا. كانتْ خطّتها تقضي بأن تتجاهل الاثنين، وتتصرّف كأنهما غائبين، والبداية من لحظة مرورها بالطابق الأرضي إلى الخارج كي تتدبّر أمر البيت الجديد.

لم تكد تمرّ أمام رامبو حتى أعطته ظهرها وخطتْ صوب الباب. بدا ذلك ثقيلًا على نفسها. أثقل مما ظنّته حين عزمتْ عليه. ما إن وضعتْ يدها على المقبض، حتى ناداها بنبرة تعرفها تمامًا، فاضطربتْ. ظلّت ساكنة لبرهة وكأنها تجدّد العهد الذي قطعته على نفسها، وتحشد ثباتها، ثم استدارتْ وهي تُطالعه بصرامة. سألها عن رأيها في المرتبة، وهو يدعوها للجلوس جواره. بدا ذلك اعتذارًا مبطّنًا، ففاقم من اضطرابها. كانت قد تجاسرتْ على فكرة تجاهله، لكنّ عزمها لم يكن ليذهب بها أبعد. وجدتْ نفسها تنساق لطلبه

بخطوات بطيئة، وقد وجدتْ في الملامح العابسة تشبثًا بأطراف قرارها القديم، وإخلاصًا له.

حين استقرّتْ بجانبه، شعرت ببعض الراحة إذ لم يعد من المتوجّب أن ينظر في وجهها مباشرة. أعاد سؤاله، فخرجتْ كلماتها مقتضبة فاترة، وهي تستحسن الفكرة. من مكانها لمحتْ دهشة جامي وهو يسترق النظر إليهما، فعدّلت من جلستها وهي ترسم على وجهها ابتسامة واسعة مستغلة غياب وجهها عن زاوية رؤية رامبو. حين عادتْ ببصرها إلى الرجل، كان قد عاد إلى كتابته، قبل أن يتوقّف فجأة وهو يسأل عن رأيها في جامي. لم ينتظر جوابها، إذ أطرى على خادمه، وقد تعلّم بسرعة، وغدا يمكن الاعتماد عليه تمامًا. صمتَ قليلًا وكأنه يُهيؤها لما سيقوله، قبل أن يُضيف أنه رغم ذلك يعدّها أساس البيت وشريكته فيه. كان ذلك أكثر من اعتذار، وجدتْ نفسها تبتسم بصدق هذه المرة رغمًا عنها، وهي ترى الرجل الذي عرفته أول مرة. والأهم أنه بكلامه ذاك، أعاد كلًا إلى مكانه.

«كانت لديه تلك المقدرة العجيبة على التنقل بي من السفح إلى القمة ومن القمة إلى السفح. أظنه أسوأ ما يمكن أن يفعله الحب بالإنسان، أن تتحول إلى أداة في يد شخص آخر، كرة لينة من عجين أو صلصال، يشكّلك كيفما شاء، سعادتك بيده، تعاستك بيده، حياتك نفسها بيده، هل ثمة ما هو أشدّ مهانة من أن تفقد السيطرة على دفة سفينتك فيتحكم بها شخص آخر باسم الحب؟ يقودك حيثما يريد، للغرق أو للبرّ لا تعرف. هذا ما كان يفعله بي

تمامًا، يؤرجحني من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين، يقذفني مرة إلى فوق، ثم سرعان ما يخسف بي الأرض. تركته يفعل، لم يكن بيدي شيء. أتأمل هذا كله من بعيد جدًا الآن، وينتابني ذلك الشعور أنه ماضي امرأة أخرى».

حين عاد إلى الكتابة، مالتْ بجذعها للأمام، وركّزتْ نظرها على الرسالة فسرتْ رعدة في جسدها ما إنْ طالعتْ سطرًا يقول «**أوَليست بائسة هي الحياة بلا أُسرة..**».

رجعتْ للوراء بأنفاس متسارعة. عصرها ألم معدتها، ثم لم تشعر بنفسها إلا وقد قامتْ متعجّلة صوب الباب، وغادرتْ البيت دون أن تلتفت خلفها. هامتْ على وجهها في شوارع هرر، يخفق قلبها بشدّة، وتغيم أمام ناظريها الوجوه، فيما الأصوات تتداخل فتفقد أي معنى. الصوت الوحيد المسموع كان يتردّد داخلها؛ هل يقصدها؟ هل التفتَ لها أخيرًا؟ لماذا، وكيف؟ لم تجد إجابة واحدة لكل تلك الأسئلة، لكنّ قلبها ظلّ على خفقانه، وكأنه يقودها دون ممانعة إلى وجهة وحيدة متمناة. باءتْ كل محاولة لتغيير الوجهة بالفشل. مرّتْ بالعجوز بائعة القهوة. هذه المرة جلستْ عندها، ومدّتْ يدها لالتقاط واحد من الفناجين المملوءة عن آخرها. ارتبكتْ العجوز وقد تبدّدتْ وحدتها فعلاً هذه المرة. هذا ما أرادته ألماز؛ أن تتقاسم مع العالم ابتهاجها.

«أنا حمقاء. كم مرة اعترفتُ بهذا؟ أريد أن أقولها إلى ما لا نهاية إذن: أنا حمقاء. وكلما لاحت لي أشباح الماضي، أجد أنها أكثر صفة

سيكون من الإنصاف بمكان إطلاقها عليّ. حمقاء. وعندما أتذكر أضحك غالبًا. ولكن ليس من السعادة. إنه الضحك الذي يُؤاخي البكاء. بعض البكاء يكون مرًّا للحدّ الذي ينقلب فيه إلى ضحك. كثير من الضحك يكون حادًا وجارحًا كنصل سكين. الإنسان لا يعدم الطرق للتعبير عن ألمه».

الآن، وعلى كرسيّ رامبو، يعلو صوتها بالضحك حين تتذكّر حالتها تلك. تصمتُ قليلًا ثم تعاود الضحك على نفسها بصوت أعلى. لا تعلم كم كان ينبغي أن يمرّ من العمر حتى يغدو مفهومًا كل تلك البلاهة التي تُطالعها الآن من مكانها هذا. كم كان يستلزم، حتى تستحيل امرأة أخرى غير تلك المثيرة للضحك والتعجّب. تلعنُ بصيرتها المتأخرة، وقد فات أوان احتياجها. تلعنها وقد تساوى حضورها والغياب، طالما أنّها جاءتْ في غير موعدها المنتظر.

لو أُتيح لألماز أن ترى نفسها، وهي جالسة الآن على كرسيّ رامبو، تنظر لنفسها حين كانت برفقته، لتواضعتْ قليلًا وهي تتحدث عن البصيرة المتأخرة، أو لأعادتْ الكلام نفسه، وهي تقصد ما بدا لحظة التبصّر على ضلال قديم، على أنه إيغال في الضلال ليس إلا. هل كُتب على الفتاة أن تدور في أخطائها، وهي تحسب نفسها في كل مرة قد فارقتها إلى الأبد؟

حين عادتْ من الهيام على وجهها في هرر، كانت قد اغتسلتْ من ضيقها، ورمتْ خلفها كل نية للرحيل، بل وبدتْ على غير الحال الذي كانت عليه تمامًا. ظهر جامي أمامها فابتسمتْ بحبور

غير أنه قابل ذلك بوجه فاتر، ثم سرعان ما غادر إلى غرفته. لم يُغيّر ذلك من حالها. شعرتْ ببهجتها تسع الكون على علّاته. وتُبدّد كل أثر للكآبة مهما بلغ.

بدا أنّ رامبو قد قصد غرفته مبكرًا، فتوجّهتْ صوب غرفتها في الطابق العلوي، غير أنها توقّفتْ حين لمحتْ على الطاولة التي يكتب عليها رامبو ورقة تعرفها تمامًا لفرط ما رأتها دون أن تحظى بقراءتها. اقتربتْ فرأتْ لطخة الحبر الكبيرة على طرفها فتأكدتْ أنها هي. سارعتْ بالتقاطها ككنز، والتفتتْ ترقب إن كان ثمة من يراها. خطر لها أن تأخذها إلى غرفتها لكنها خشيتْ غضب رامبو. ثم عادتْ وفكّرتْ أنه ما ترك الورقة أخيرًا إلا وقد انتفتْ أهميتها بالنسبة إليه. كانت رسالة من أمه، أخذتْ نفسًا عميقًا، وشرعتْ في القراءة:

«آرثر، ولدي، طال صمتك، ولماذا هذا الصمت؟ سعيداتٌ اللواتي لا يملكنّ أطفالًا، وأكثر سعادة اللواتي لا يُحببن أطفالهنّ».

توقّفتْ ألماز عن القراءة. ظنّتْ أن ثمة شيء لم تفهمه، فأعادتْ المدخل، ثم أكملتْ مضطربة:

«إنهنّ لا يكترثنّ لما قد يحدث لهنّ. قد لا يتحتّم عليّ أن أقلق. العام الماضي، وفي هذا الوقت تقريبًا، لم تكتب لنا، ولم تردّ على رسائلنا ستة أشهر، علمًا بأنها تتطلّب ردًا سريعًا. لكن مرّ الآن أكثر من ثمانية أشهر طويلة منذ أن وصلنا خبر منك».

قطعتْ ألماز قراءتها مجددًا لتعرف تأريخ الرسالة، غير أنّ لطخة

الحبر كانت تحجب مكانه في جانبها العلوي، ولم تُبقي إلا على كلمة روش. عادتْ تقرأ من جديد:

«لا فائدة من الحديث عن أخبارنا ما دامتْ لا تهمك كثيرًا. مع ذلك، من المستحيل نسياننا هكذا. ماذا جرى؟.. هل تركتَ عدن؟ نخبرك الحقيقة، سنُجنّ بحثًا عنك. وأعود وأقول: سعيداتٌ، آهٍ سعيداتٌ جدًا اللواتي لا يملكنّ أطفالًا، أو اللواتي لا يحببنهنّ».

زادتْ حيرة ألماز وهي تحاول معرفة زمن الرسالة. كيف تشتكي الأمّ من غياب رامبو عن مراسلتها كل ذلك الوقت، وهو لا يكفّ يكتب لها على الدوام؟ هل تكون تلك الفترة التي احتجزتْ فيها قافلته في تاجورة؟ أم أيام سفره إلى عدن؟ لكنّ رسائل أخرى توضح تواصله مع عائلته حينها. بدا غريبًا كلّ ذلك العتاب الذي حملته الرسالة، لا يمكن أن يصدر إلا من قلب مكلوم وملتاع. أعادتْ ألماز الرسالة على الحال التي كانتْ عليه وغادرتْ إلى غرفتها دون أن تُغادرها الأسئلة: لماذا احتفظ رامبو بهذه الرسالة بالذات بينما كان يُتلف كل رسالة يتلقّاها بمجرد أن ينتهي من قراءتها؟ وماذا كان يكتب إن لم تكن رسائل إلى عائلته؟ لوهلة خطر ببالها سؤال زاد من إرباكها؛ هل تراه كان يكتفي أحيانًا بكتابة الرسالة دون أن يرسلها؟ هل حقًا فعل ذلك؟ ولماذا قد يلجأ إلى هذا الفعل الغريب؟ أم أنه كان يكتب أمورًا أخرى؟ وما قد تكون؟

لم يخطر ببال ألماز أن تتساءل إن كان الرجل قد وجد في الرسالة ذلك الألم المعجون بصدق لا يمكن إدعاؤه، وأنه بذلك قد يكون

ذهب بالعلاقة إلى مستوى جديد مفارق للرتابة والتوقّع. هل كانت الرسالة استجابة متأخرة لبحث رامبو المضني عن جرح لا يكفّ يدوس عليه حتى يُخرج عصارته؟ هل كان الرجل يبحث عن أمه في أعماقها؟ والألم عادة هو آخر مجاهل الروح.

حين أوتْ ألماز إلى فراشها بعد ليلة طويلة من السهاد، والانشغال بمحاولة فهم ما جرى، لم تكن قد نجحتْ في الوصول إلى شيء يُعينها على تفسير كل ذلك.

أعمل على جعل نفسي رائيًا

(١٧)

عاد جامي عن نفوره من ألماز، لكن ليس إلى الحدّ الذي اعتادتْ عليه. لم يجد أمام تلطّفها معه إلا تخفيف حنقه عليها. ربما قاده إلى ذلك، الاستغراب من سلوكها الجديد، أو أنه رقّ مجددًا. حين رأته أخيرًا يستغلّ وقت راحته، ما إن عمد رامبو إلى القيلولة، ويقصدها في السوق، عرفتْ أنّ غضبه زال تمامًا. خشيت أول الأمر أن يعود إلى إزعاجها بذلك الالتصاق الثقيل، والحديث بلا توقف، والتملّي في وجهها. خشيت من كل ذلك، لكنها اطمأنت إلى قدرتها على الاحتمال. كانت ما تزال تغرف من ابتهاج يصدّ عنها كل منغصات الحياة.

ما إن جلس جوارها، حتى شعرتْ بالاختلاف؛ لم يكن على القرب ذاته ولا الإقبال. بجانبها لكنه بعيد عنها، ينظر إليها دون أن يراها، ويتحدث إليها وليس معها. طرَق مواضيع فاترة، قبل أن يصمت قليلًا وكأنه يتهيأ لقول ما جاء من أجله. كانت تلك طريقته التي تعرفها الفتاة تمامًا.

«هل تقرأين لي شيئًا من رسائل رامبو قبيل إرسالها؟».

سرتْ رعدة في جسدها. كان هذا آخر ما يمكن توقعه. وكي تُخفي اضطرابها، أشاحتْ بوجهها بعيدًا، واصطنعتْ لا مبالاة تمنّتْ ألا يفضحها صوتها وهي تسأل:

«هذا أمر سهل، ولكن لماذا تريد قراءة رسائل سيدك؟».

ضغطتْ على الكلمة الأخيرة دون تفكير. كانت منقادة لفكرة تهيئة كل شيء لما سيحدث قريبًا.

«أريد معرفة إن كان يذكرني عند عائلته».

هذه المرة التفتتْ إليه من فورها. نظرت في وجهه بحدّة، في عينيه تمامًا. أرادتْ أن تعرف إن كان يسخر منها، أو يستدرجها ليسمع قصة إذلالها الطويلة. لكنها لم ترَ إلا ملامح رقيقة، كتلك التي كان يُطوّقها بها قبل غضبه الأخير، فانكفأتْ لا تدري ماذا تفعل. أعاد طلبه، فاضطربتْ من جديد. أومأتْ برأسها موافقة، فشكرها بامتنان بادٍ، وغادر مبتهجًا.

كادتْ تستوقفه، لكنها عدلتْ. تركته يغادر، دون أن تفهم شيئًا. هل هو الفضول؟ ما الذي سيعنيه أن يأتي رامبو بذكره في رسائله؟ ولماذا قد يفعل ذلك مع جامي، وهو لم يفعله معها؟ أيّ جنون هذا الذي أصاب الشاب؟ لوهلة خطر لها خاطر أعاد لها هدوءها، ثم رسم ابتسامة رضى على وجهها، قبل أن يعلو صوتها بضحكة هازئة. حدث كل ذلك سريعًا ما إن تخيّلتْ وجه جامي وهو يعرف قريبًا نوايا رامبو بالزواج منها. ها هو الأمر نفسه

ينتشلها من كرب كَمَن لها وكاد يُوقعها في حباله. لم يعد يخدش يقينها شيء في أنّ حبها لرامبو بمقدوره أن يُسعدها عمرها كله متى ما وجد القبول ليبقى ويكبر.

في طريق العودة إلى البيت، كانت أكثر حرصًا من جامي على تحقيق رغبته.

ما إن فتحتْ الباب حتى وجدتْ نفسها في منتصف حديث بين الاثنين، لكنّ رامبو كفاها عناء تخمين بدايته، وهو يدعوها لتسمع إجابة جامي على سؤال إن كان يرغب في الزواج وتكوين عائلة. لا تعرف لمَ شعرتْ أنها إزاء ورطة كبيرة. بدا أنّ الشاب سيعترف بحبّه لها ويهدم كل آمالها في أن يلتفت رامبو لها. اضطربتْ، فكّرتْ في المغادرة لغرفتها، أو حرف مسار الحديث، أو الإيماء لجامي بألا يُجيب. انشغل عقلها بكل تلك الأفكار دفعة واحدة، فسكنتْ في مكانها عاجزة عن فعل شيء.

تلعّثم جامي وهو يلتفتُ صوبها، فأدركتْ قرب المصاب، قبل أن ينطق أخيرًا:

«ما أزال أرى ذلك سابقًا لأوانه».

ضحك رامبو، ثم شاركه الشابّ بارتباك، فيما بقيتْ ألماز على سكونها، لا تُصدّق كيف نجتْ من ورطتها، قبل أن تبتسم وهي تحاول مجاراتهما.

لا تفهم لمَ أخفى جامي رغبته فيها، لكنّها لم تتوقف عند هذا

كثيرًا. كانت مأخوذة بانشغال رامبو الطارىء بالزواج؛ تارة يكتب لأمه شاكيًا حياته دون زوجة، وها هو الآن يُمضّي الوقت بالحديث مع خادمه في الشأن نفسه، ثم كان حريصًا على أن تشهد هي بالذات الموضوع من بدايته. تكاد تفقد عقلها من السعادة، بودها لو تحتضنه، تُقبّله، تسحبه من يده لغرفته أو غرفتها، لا يهم. تفعل ذلك كله بجرأة لم تملكها يومًا، لكنّ الأمر يستحق.

في الليل بدا أنّ جامي ينتظر سؤالها عن إجابته الغريبة، لكنها لم تفعل، فشعر بارتياح، وانشغل بطاولة الكتابة. كانت ألماز أكثر تحفّزًا منه للرسالة التي سيختم بها رامبو يومها السعيد، وما إن غادر الرجل إلى غرفته، حتى هرع الاثنان إلى طاولته؛ هي تُمسك بالورقة وتصوّب بصرها على أسطرها، وجامي يُصوّب بصره على الفتاة ينتظر أن تنطق.

بلؤمٍ اختارتْ أن تنتهي من قراءة الرسالة أولًا قبل أن تُشركه في فحواها، ولم يكن يملك إلا الانتظار مُخفيًا غيظه. حين فرغتْ فتر حماسها، وكادتْ تترك الرسالة وتُغادر، لولا أن انتبهتْ إلى وقوف جامي قربها، فشرعتْ تقرأ على عجل ثم قصدتْ غرفتها، وهي تُوصي الشاب بأن يُعيد الورقة إلى ما كانت عليه. لم يفتها الانتباه إلى اختفاء الرسالة ذات لطخة الحبر الكبيرة على طرفها. خطر لها أنّ رامبو كان قد سها عنها حينها، وأنه بمجرد أن انتبه أعاد تخبئتها.

انتقل الفتور إلى جامي، وقد خاب أمله في أن يجد شيئًا عنه في الرسالة، خاصة وأنها كانت تحكي كيف أصبح رامبو يُراقب عمله

من مرتبة أسندها على جدار في زاوية البيت بحيث تُطلّ على الباحة ولا تُرغمه على إجهاد قدمه. بدتْ الحكاية منقوصة؛ إذ كيف يحكي رامبو كل ذلك، دون أن يُخبر أهله أنّ جامي ساعده. لوهلة خطر في ذهن الشاب أنّ ألماز قد تكون قرأت الرسالة بعد أن تجاوزتْ كلّ ما يخصّه فيها. حين أعاد الرسالة إلى مكانها، كان قد عزم على التقدّم خطوة بحيث لا يعود بحاجة لألماز بهذا القدر الكبير. وما إن همّ بدخول غرفته، حتى سمع صوتًا يهمس يُناديه.

أصبحتُ الآن معتادًا على كل حال..
لا أخاف شيئًا

(١٨)

تعالتْ أصوات نزاع بين بائعيْن على مكان، وسرعان ما استحال إلى عراك بالأيدي والأواني الخشبية. اكتفتْ ألماز بتغطية بضاعتها بأكياس الخيش، وظلّتْ في مكانها تراقب ما يجري، وتنتظر انتهاءه. لم تفزع أو تفكّر بالمغادرة، لفرط ما اعتادتْ على رؤية الباعة يتقاتلون من يستولي على المكان قبل غيره، أو بعده لا فرق.

لم يكن السوق إلا الشكل الذي غدتْ عليه المدينة بعد الحرب؛ قلّة ناجية انكفأتْ على نفسها ورضتْ بالقليل الذي بقي، وجموع وافدة، وفي نيتها تخليص ثأرها مع الفقر، أو الشتات، أو المدينة المحرمة نفسها. مرّ وقت دون أن يستقرّ الحال؛ بيت تسكنه عائلة اليوم، تُخرجها أخرى في الغد، ومزرعة يسطو عليها مزارع، ليُغادرها تحت تهديد مزارعين أكثر منعة. باتت هرر مشاعًا، وصيدًا مبذولًا دون صاحب.

لم يكد الحال يهدأ، حتى وجدتْ جامي أمامها، يحمل ورقة وقلمًا، وابتسامة تُغطّي وجهه. كانت أول مرة تنتبه فيها ألماز، أنّ له

ابتسامة بعينها، حين تستولي عليه حاجة ملحّة، غير تلك التي كان يُقبل بها دائمًا. لم يُطل التمهيد حتى بادر بطلب معرفة الطريقة التي يُكتب بها اسمه بالفرنسية. وما إن حصل على مراده، حتى غادر مسرعًا، وقد انكمشتْ الابتسامة بعد أن أدّتْ مرادها.

لا تستطيع فهم جامي، بدا غريبًا أن يفتر كل ذلك الإقبال الذي كان عليه نحوها. صحيح أنها كانت تختنق بالطريقة التي يُحاصرها بها، لكنها في المقابل لم تجد نفسها مرتاحة لخفوت اهتمامه بهذا القدر. جامي الذي بدأ رفيقًا مقرَّبًا، ثم أفصح عن حبه لها، قبل أن ينقلب ويعمد لإيذائها، ثم يعود هائمًا ويلحق بها إلى هرر، وها هو الآن يُباعد في خَطْوه عنها كأنه ما مرّ بكل ذلك. منذ البدء، لم تشعر به حبيبًا دون أن تجد لذلك تفسيرًا، لكنّها اليوم، لا تقبل رفقته، لأنها لم تعد تراه مُريحًا كالسابق.

تعجّبتْ كيف يبدو الواحد مثقوبًا بالعيوب، كلما اختار أن يقترب حبًّا أو كرهًا. أحسّتْ أنها ما كانت لترى الشاب على حاله هذه لو لم يسعَ ليكون أكثر من صاحب تُمضّي الوقت برفقته كلما أُتيح ذلك. لكن هل اقتراب جامي هو ما أبانه أكثر، أم تلك المسافة التي زرعتْ بينهما؟ هل رأته على تمام حاله في القرب أم الابتعاد؟

صرفتْ أفكارها، طالما القدر يُوضّب كل شيء ليصبّ في غايتها آخر الأمر. واستقرّتْ على خاطر أن تظل جاهلة بما جرى لجامي، خير من أن يعود لسيرته الأولى معها.

انقضتْ ليالٍ بعد ذلك تُشبه بعضها؛ ما إن يُغادر رامبو إلى

غرفته تاركًا رسالة حتى ينقضّ عليها الشابّ أولًا يبحث عن اسمه فيها، وحين يعجز يُسلّمها لألماز، علّها تجد ما يُشير إليه بغير الاسم. مثله تمامًا، كانت الفتاة تبحث عن إشارة عمّا ترجو حدوثه، وما إن ترتدّ خائبة، حتى تبدأ تقرأ للشاب منزوعة الرغبة.

في مرة سألها جامي عن الشيء الذي تبحث عنه، فارتبكتْ، وحاولتْ إقناعه أنها إنما تهتمّ لأمره ليس إلا. ومع توالي الأيام، ومثلما كان التحفز يملأهما في البداية، تسلّل إليهما انطفاء تلو آخر، لكنهما اختلفا في المآل الذي ركنا إليه. ففي حين عوّل الشاب على الوقت، وعلى يقينه بورود اسمه يومًا، كان صبر ألماز قد نفد، وعزمتْ على التخلّص من وطأة انتظارها الثقيل.

قضتْ النهار كله شاردة أمام بضاعتها تُقلّب ذهنها بحثًا عن الطريقة التي ستبتدر بها الكلام مع رامبو. كانت قد عزمتْ على سؤاله عنهما، عن المآل الذي يبتغيانه. فكّرتْ أن تحوم حول الأمر حتى يطرقه بنفسه، ثم خطر لها أن تسأله نفس سؤاله لجامي، قبل أن تستقر أخيرًا على أنّ أقصر الطرق لمرادها لا يحتمل كل تلك الحِيَل، وأنّها ستنظر في عينيه وتسأل دون مواربة.

لم تنتبه إلا وجامي يُقبل بملامح متجهمة. انتظرتْ أن يتحدث، لكنه فيما بدا كان ينتظرها لتسأله، ولما طال انتظاره، شرع في شكواه. أخبرها أنّ رامبو في مزاج متعكّر، وأنه اضطر للمغادرة حتى يتفادى غضبه. كاد يزلّ لسانه بما هو أكثر لكنه أحجم. وحين سألته إن كان هو سبب غضب سيده، أشاح بوجهه وحرف وجهة الكلام

إلى موضوع آخر، قبل أن يعود ليسألها إن كانت تعرف طريقة ليعود رامبو عن مزاجه السيئ.

شعرتْ ألماز بالحيرة، ولم تدرِ إن كان من الملائم أن تمضي في قرارها والحال هذه، قبل أن تستقرّ في النهاية على انتظار أنسب الأوقات، على ما في ذلك من مفاقمة رهقها النفسي. ثم طرق خاطر على بالها بقرب تحقّق لحظتها المنتظرة وانقلاب رامبو على خادمه أخيرًا، فهدأتْ روحها وانشرحتْ لما هو آت.

لم يُغادر جامي إلا حين وضّبتْ أغراضها وقصدت البيت، فقام يرافقها. نظرتْ إليه، وقد زادتْ شكوكها في أنه يُخبئ أكثر مما باح به.

حين وصلا كان رامبو على غير عادته، قد صعد إلى غرفته. انهمكتْ ألماز في طيّ أكياس الخيش ووضعها في زاوية البيت، قبل أن تفاجأ بجامي يقف على رأسها وبيده رسالة جديدة.

كانت تلك اللحظة بمثابة فرصة فارقة أمام ألماز، للاكتفاء بما مضى من خسارات، ولملمة الخيبات والتوقّف عن النزف. كان يُمكن كل ذلك، لولا ذلك الأمل الذي لا يكفّ يُمنّيها بالقدرة على التعويض أو الثأر، أو الخروج بأقل الخسائر على أقل تقدير.

حين تستعيد ألماز، على كرسيّها/ كرسيّه الذي تجلس عليه الآن، وبعد فوات كل شيء، كيف كان بمقدورها فتح الباب والرحيل ليس إلا، تعلم يقينًا كيف يبدو الأمل أحيانًا حبلًا يقود إلى الهاوية، فيما نظنه المنقذ منها. وكيف كان سيبدو كل شيء مختلفًا

لو استطعنا أن نخرج من أنفسنا للنظر إليها مجردين من ذلك الأمل. بقدر ما يتعلّق الأمل بالمستقبل، فإننا لا نراه على تمامه إلا حين يُصبح ماضيًا.

بدا أنّ جامي قد انتهى من البحث عن اسمه في الرسالة، وحين عجز جاء بها إلى الفتاة. تلقّفتها، وأدارتْ ظهرها له وشرعتْ في القراءة. كباقي الرسائل، كانت مقتضبة ومباشرة وأُستهلّت بالعبارة الدائمة؛ إلى صديقتيّ العزيزتيْن.

كان الشاب يُقاطعها من الخلف وهو يطلب منها مرة أن تقرأ بعلوّ صوتها، ومرة يسأل إن كان ورد فيها شيء عن سبب غضب رامبو. سمعته في المرة الأولى، واختارتْ تجاهله عمدًا، ثم بدا لها أنّه كرّر طلبه دون أن تكون على يقين من ذلك. تداخل صوته مع الأحرف الحادّة التي تقرأها، فكاد يجرح مسامعها. لم تشعر بنفسها إلا وهي تضع الرسالة جانبًا، وتمضي إلى غرفتها بخطوات بطيئة، والوجوم يصبغ وجهها.

كانت غاضبة هذه المرة. لم تحزن أو تختلط مشاعرها. كانت صافية الرغبة في الثأر ليس من رامبو فقط، بل من كل الوقت الذي أهدرته في التعويل عليه. حين أغلقتْ على نفسها الباب، تبدّتْ لها فكرة ستصيبه في مقتل. لذا سرعان ما كفكفتْ دموعًا كانت قد انسابتْ أثناء سيرها، وكبحتْ نشيجًا كاد ينفلت. خطر لها أن ترحل هي وجامي، وتترك الأوروبيّ بقدمه الخرِبة يواجه مصيره وحده. هكذا خطر على بالها: «الأوروبي»، وكأنه ارتدّ غريبًا كيوم

قدومه إلى هرر. ستفعل كل ما بوسعها لتستعيد جامي، ثم تستمتع برؤية السيد المعطوب كيف يُدّبر أموره دونها.

حين اكتمل عزمها تذّكرتْ أنها مدينة لجامي بإخباره بفحوى الرسالة. وحتى تجلبه لصّفها لن يكفي أن يعرف المكتوب وحسب، لذا قرّرتْ أن تزيد من عندها حتى يجد مبررًا لمرافقتها. لن يكون معنيًا إذا أخبرته بما قرأت وحسب من أنّ رامبو أرسل لأهله يتحسّر أنه لم يتزوج فرنسية ويُنجب منها طفلًا يربيه وفق المأمول. خرجتْ من غرفتها تقصد غرفة الشاب ورغبة الثأر تستولي عليها بالكامل. لم تكد تمرّ بغرفة رامبو في طريقها للأسفل، حتى سمعتْ ضحكات زاد وضوحها حتى انتهتْ بأن فُتح الباب، ليخرج جامي، ويضطرب لرؤيتها أمامه، فغادر مسرعًا دون أن يُغلق الباب. من مكانها رأتْ رامبو عاري الصدر ممددًا على سريره، فلما رآها طلب منها أن تُغلق الباب. كادتْ تستجيب لكنها سكنتْ قليلًا قبل أن تتجاهله وتنزل تلحق بالشاب.

في غرفته ارتبك جامي حين لحقتْ به. كاد يتكلّم لكنّها سبقته إلى ذلك:

«أتيتُ لأخبرك بما وجدته في الرسالة. أنا آسفة لأني اضطربتُ وغادرتُ دون أن أقرأ لك».

كانت قد عزمتْ أن تختلق رسالة عن الرجل إلى أهله يُخبرهم أنه ضاق ذرعًا بخادمه الكسول، وأنه سيطرده ما إن يجد خادمًا آخر. وحتى تُعمّق من جرحه رأتْ أن تُضيف بضع كلمات في

مدحها بحيث يُدرك الشاب أنه سيرحل وحده، حتى إذا عرضتْ مرافقته في المغادرة بدا ذلك كرمًا منها وفضلًا. لم تكد تنطق حتى جاءها جواب جامي فألجمها:

«عرفتُ ما فيها. طلبتُ من رامبو أن يقرأها لي. ليس هذا وحسب، بل وعد أن يُعلّمني لغته».

شعرتْ بتصدّع خطتها وخوارها قبل حتى أن تشرع فيها. لم يخطر ببالها أن تسأل جامي عما أخبره رامبو. عوض ذلك مضتْ في خطتها وتجاوزتْ صدمتها سريعًا، فطلبتْ من جامي أن يرافقها في الرحيل. استغرب الطلب، وقبل أن يستفسر، اقتربتْ منه كما لم تفعل من قبل، وهي تعده أن يعيشا بشكل أفضل بعيدًا عن الأوروبيّ ومزاجه المتقلّب، وأنهما قادران على إعالة نفسيهما في هرر. ابتعد عنها وهو يُخبرها أنه لا يستطيع فعل ذلك. أعادتْ الاقتراب منه حتى لامس صدرها ظهره، وهي تتغاضى عن صدمتها من صدّه البارد لها، وكرّرتْ الطلب بكلمات أخرى، فاستدار نحوها بملامح حازمة:

«لن أرحل. غادري أنتِ إذا أردتِ».

نظرتْ في عينيه، هذه المرة وهي تودّ لو يرى كم تكرهه وتحتقره وتشعر بخيبة أمل منه. نظرتْ إليه بعينين غارقتين في الدموع والاحمرار. حملتْ نفسها إلى غرفتها بخطوات ثقيلة، ونفس مكبّلة، وأفكّار مشوّشة. تمنّتْ أن تتوقف بها الحياة، ولا تُدرك يقينًا أنها واقعة في كل ذلك وحدها.

العالم فاسد

أوَ يُدهشك هذا!

عش، وإلى النار ارمِ

نكد الطالع، المظلم هذا!

(١٩)

تبخّر كل تذمّره من حمّاليه الذين جلبوه من هرر، ما إن جرّب حمّالي الميناء.

لم يكن أمامه إلا البحث عمن يستطيع نقله إلى سطح السفينة، فاستعان بأربعة عمّال كانوا بالجوار. أصرّوا على قبض أجرتهم مقدمًا، وانتشلوه كخرقة بالية متجاهلين صياحه ولعناته المتتابعة. صعدوا السلالم المهتزّة على عجل وكأنهم في سباق، يكاد يُفلته أحدهم، فيتداركه الآخر مما فاقم من آلام ركبته، وما إن وصلوا للسطح حتى قذفوا به كغرض عديم النفع، وغادروا يُقلّدون صياحه ويضحكون.

ظلّ رامبو على حاله تلك وقتًا حتى هدأ وجع ركبته، فأخرج أوراقه، وشرع يكتب رسائل مقتضبة في كل اتجاه.

هل كان الرجل فعلًا مهجوسًا بإخبار الآخرين ما يجري له، أم كان في حقيقة الأمر يبحث عن رفقة ولو متخيّلة تُهوّن مشواره الطويل الوعر؟ ألا تبدو تلك الرسائل حيلة ناجعة لتفادي وحدة بغيضة تتضافر مع آلام قدمه ضده؟

طلع النهار على ألماز في غرفتها دون أن تُغمض عينها. يخطر ببالها كم تكره رامبو، وتكره جامي، وتكره هرر.

تكره رامبو لأنه بدا سقف أحلامها الذي كادتْ تصله قبل أن ينهار على رأسها، ولأنّ انتظار أن يراها استهلكها عمرًا بأكمله، ولأنها بلغتْ آخر الطريق منهكة قبل أن تُدرك ضياع خطواتها في الوجهة الخاطئة.

وتكره جامي لأنها ظنّتْ أنه الشيء الوحيد العصيّ على التبدّل، وأنّه في مكانه دائمًا، تجده وقتما تلتفتُ إليه. وتكرهه لأنّه زوّادة رضاها عن نفسها، وقد بدتْ فارغة في ذروة ما احتاجتْ إليها.

وتكره هرر، لأنّ كل ما جرى اختصر طباع هذه المدينة المراوغة، بعدما كانت بالنسبة لها منتهى ما طمحت إليه، وكانت وجهتها التي تضرعت للرب أن تكون الأخيرة، وكانت تجسيدًا لكل سعادة ارتقبتها من الحياة حتى باعت من أجلها كل غالٍ وعزيز. كانت كل ذلك معًا قبل أن تتبدّد إلا من نقيضه.

خرجتْ من غرفتها تحملُ كيسًا صغيرًا هو كل ما تملكه في هذا البيت الكبير؛ فانتبهت كم كانت طارئة على المكان، لا تملك فيه أكثر مما يملك أي عابر. مرّتْ بغرفة رامبو. مجددًا كانت الأصوات تصلها واضحة. تجاهلتها وخطتْ صوب السلالم، لكنّها في لحظة استدارتْ وقصدتْ الغرفة بتصميم كبير. لا تعرف لما فعلتْ ذلك، ربما لتُفرغ شيئًا من غضبها قبل أن تغادر، أو لعلّ رغبة دفينة في أن تحظى بما يُشبه الوداع كان دافعها، لكنّها حين فتحتْ الباب

تسمّرتْ في مكانها. تبخّر كل ما جال بذهنها، وحلّتْ مكانه صدمة تكاد تمزّق معدتها. انقطعتْ الأصوات، وسارع جامي يستر عريّه باضطراب، فيما صرخ رامبو في وجهها لتغادر، لكنّها لم تفعل. كانت تُحدّق في الاثنين بنظرة حارقة، لم يملك أمامها جامي إلا الانزواء في زاوية الغرفة وكأنه يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه. بقيتْ في مواجهة رامبو. بدا نزالًا مؤجلًا، متكافئًا هذه المرة. وعلى خلاف ما يمكن أن يخطر بباله، سألته إن كان سبق له أن رآها، أحسّ بها، فكّر فيها. لم يُجب، ولم تكن تنتظر إجابة، فواصلتْ تسأله إن كان قد شعر بالخوف عليها ولو للحظة حين كانت وحدها وسط الحرب، فيما هو يتابع من بعيد. هنا صمتتْ قليلًا وكأنها تعطيه فرصة أن يجيب. لا تعرف لم خطر ببالها هذا السؤال في تلك اللحظة، بدا سؤالًا مؤجلًا في أحشائها يتغذى على خيباتها ويكبر حتى حانتْ ساعة خروجه. بدا سؤالًا قديمًا لكنه، ويا لبؤسها لم يفقد أسبابه منذ لحظة تخلّقه الأولى.

التفتتْ صوب جامي، فعاوده اضطرابه. سألت الشاب إن كان قد أحبها حقًا، إن كان قد جاء لهرر من أجلها فقط. بدا وكأنّ ألماز تقيم جرد حساب مطوّل للرجلين، وهي تعرف النتيجة مسبقًا. بدا أنها تمحو كل سانحة لسوء الفهم، بحيث حين تُدير ظهرها، تكون قد فعلتْ ذلك بالفعل، وإلى الأبد.

حين فرغتْ غادرتْ دون أن تنتظر كلمة منهما.

من جديد تسمع طرقًا متفرقًا. هذه المرة، تتحامل على نفسها

وتنهض من كرسيها/ كرسيّه صوب الباب بخطى ثقيلة. تسحب نفسًا وكأنها تحقن روحها بالطاقة. تفتح الباب لكنّها لا تجد أحدًا أمامها. تُخرج رأسها قليلًا وتلتفت باحثة فلا تخرج بنتيجة مختلفة. تعود بالثقل نفسه إلى مكانها، وهي ليست على يقين، إن كانت قد سمعتْ بالفعل طرقًا على الباب أم تخيّلته. تمرّر يدها على صدرها المنكفئ، وعلى فمها، شعرها، ذراعها، ساقها، تُحاكي تلك الحالة التي كانت عليها غداة الفاجعة. ما أسوأ أن تنطبع الذاكرة على أجسادنا فلا نملك منها فكاكًا، كلما حاولنا الفرار منها، أدركنا أننا نحملها معنا.

حين أغلقتْ وراءها الباب تاركة رامبو وجامي على الحال الذي رأتهما عليه، مضتْ في شوارع المدينة دون وجهة بعينها. لم تشعر بخطواتها حتى وجدتْ نفسها قد بلغتْ ساحة كبيرة على مقربة من كنيسة دار العلم. هناك، وعندما شعرت أنها أصبحت بعيدة بما يكفي، وقفت تستردّ أنفاسها واستندت إلى شجرة كبيرة تتوسّط الساحة.

«يوم اكتشفتُ تلك العلاقة المشؤومة، بين السيّد وخادمه، تبدّتْ أمامي حقيقة مرعبة، وهي أني لا أكره رامبو بالفعل ولا أكره جامي، ولا حتى هرر. ولكن أكره نفسي، أكرهها بشدة، وأكره هذا الجسد البشع الذي لم أحبه يومًا. هذا حقيقي، ولكني أكرهه الآن أكثر من أي وقت مضى. كل عضو فيه يخبرني كم أنا قبيحة، منفّرة، لا تحدو أحد الرغبة في الاقتراب مني. الرجل الذي أحببته، وجد

في ذكر مثله ما لم يجده بي، قد يكون هذا هو الجزء المفزع في الحادثة برمتها. ما آلمني حقًا ليس أن يحدث ذلك بين رجلين، كل واحد منهما يعني لي شيئًا بطريقته، كلاّ، ما آلمني ويؤلمني، أني كنت دميمة إلى الحد الذي يمكن لرجل أن يغريه آخر، ولكن ليس أنا. كيف تصالحتُ يومًا مع هذا الجسد؟ كيف تهيّأ لي أنه يمكن لأحد أن يضع عليه يده؟ كيف نسيتُ قطيعتي المزمنة معه؟ كيف تسنى لي قبوله أخيرًا؟ كيف سمحت لأوهامي الغبية أن تخلط الأمور في عقلي إلى هذا الحد؟ لن أسامح نفسي على هذا. لو استحق هذا الجسد شيئًا فهو الحرق لا غير. لذا لم أشعر بنفسي حينها إلا وقد أخرجتُ مرآتي الصغيرة، تلك التي كنتُ أتملّى بالنظر عبرها إلى وجهي وصدري، وقذفتُ بها بكل قوة فارتطمتْ بجدار الزاوية وانشطرتْ من نصفها لأجزاء كثيرة، بحيث غدتْ عديمة النفع. أحسستُ حينها أنها باتتْ ملائمة لي أكثر الآن، إذا نظرتُ إلى وجهي عبرها ستُخبرني بحقيقته هذه المرة دون مواربة.

حين غادرتُ البيت لا ألوي على شيء، اقتحم الظلام عينيّ، كأنّ أحدًا أنزل على الأرض ساعتها ستارة سوداء. مشيت في الشارع غير واعية أين أضع قدميّ، كانت صبيحة يوم جمعة، حيث تكون الحركة خفيفة صباحًا، قبل أن تشتد في الضحى، وأنا كنت أرى الناس ولا أراهم، يعبرون من أمامي، يتحدثون، أحدهم اصطدم بي وقال كلامًا معتذرًا لم أسمعه، ثمة من توقف قبالتي أحيانًا ليتأكد أني بخير، وأحيانًا بدافع الفضول. ارتفعتْ الشمس عاليًا في السماء وبدأت أشعتها تصبح حارقة. نفخ هواء

خفيف، تحركتْ أغصان الشجرة، وأغصان أشجار أخرى. كل هذا اخترقني ولم أشعر به كأني شبح من ضباب. ما طلبته حقًا كان أن أختفي من العالم. لماذا على الناس رؤيتي؟ لماذا عليّ أنا نفسي رؤيتي؟ في تلك اللحظة لاحت لي فكرة، ستكون حلًا قريبًا من الاختفاء. استجمعتُ نفسي ونهضت قاصدة السوق، حيث اشتريت منديلًا وملابس ساترة، طويلة وفضفاضة. غطيت رأسي وذراعيّ وساقيّ، وشعرت بالارتياح كأن ثقلًا قد انزاح عن كتفيّ بمجرد أن باعدت بيني وبين جسدي.

منذ ذلك اليوم لا أذكر أني جرأت على مواجهة جسدي القميء هذا، ولا أردت لأحد أن يلتفت إليه، عدتُ إلى طيّه ونسيانه، وقررت حماية نفسي من أي خيبة أو مهانة قادمة. أظنني وصلت إلى تلك النقطة إذ يكتفي الإنسان من مصارعة الحياة من حوله، يرتضي الهزيمة مصيرًا له، لأنه فقد كل طاقة على مواصلة القتال. أعرف نساءً كثيرات هكذا، ميتات وهنّ على قيد الحياة. ثم وجدتني في النقطة التي بدأت منها، عندما دخلت هرر للمرة الأولى. رغم كل السنوات الطويلة والتي رغم طولها لا تنفع بشيء. هكذا شعرت، أنني لم أعش كل تلك السنوات، وشعرت أنني للتو وصلت. اتجهت هذه المرة إلى كنيسة دار العلم، تمامًا كما فعلت مع الجامع الكبير. المتسولون متناثرون على عتباتها الحجرية، كما كان الحال حين كانت جامعًا. عبرتُ الباب الكبير، وألقيت بنفسي على أول كرسي خشبي قابلني، كنت منهكة. ومن مكاني ذاك رحت أنقّل عينيّ ببطء بين المحراب المحفور على الجدار، والصلبان المتناثرة

من حوله، الأدعية المنقوشة على السقف والمصبوغة بالأخضر، حيث تتدلى أيضًا قناديل صدئة. بدا لي لوهلة أني لست وحيدة في هذا الضياع وأنّ هذا المكان يشبهني إلى حدّ كبير. أذكر الرعدة التي اعترتني، وأذكر اهتزاز جسدي الذي بدا وكأنه تلقى طلقة للتو. أذكر الشعور بالبرد، أتذكّر ذلك الآن، وأشعر بذلك البرد من جديد. كنت أرتدي ملابس كثيرة ولكن هنالك برد يتسرب من الداخل، من أعماقي، لا أعرف كيف يمكن وصفه، غير أني أشعر به. ضممت أطرافي إلى صدري، وشددت الثوب إلى جسدي قدر ما أمكنني، ولكن لم يتغير شيء. أغمضت عينيّ باستسلام وغبت».

الذين صادفتهم لم يروني!

(٢٠)

مكتبة
t.me/t_pdf

حين شرعتْ السفينة أخيرًا في الابتعاد عن ميناء زيلع، كان رامبو ما يزال على حاله يُطالع الشاطئ وهو يُمنّي النفس بعودة سريعة. لم يقوَ شيء على تبديد عادته في التعلّق بالأمل، وكأنّ دواخله معجونة به بحيث يصعب نزعه مهما ساءت الأحوال. لكن مع هذا لا يمكن للرجل أن يُخفي خيبة ترتسم على ملامحه بعد أن فاضتْ من أقصى روحه، وهو يرى كيف بدأ يذوي وهو الذي لم يُجرّب إلا السطوع في حركته الدائمة. خيبة من الجسد الذي ما عاد أهلًا للروح المتوثبة، وخيبة من العودة قبل تحقيق المراد، وكل عودة قبل الأوان هي إيغال في التيه. وخيبة من هرر التي جاءها محتشدًا بالأمنيات، وها هو يُغادرها دون أن يصل لمبتغاه في الربح الوفير والحياة الهانئة. هل أخطأ حين ظنّ أنّ الراحة تعقب كل شقاء، فقدّم كل التعب كي يحظى بنعيم طويل؟

ارتجّتْ السفينة ما إن احتكّت جوانبها برصيف ميناء عدن، فبعثتْ آلام رامبو من مرقدها بعد أن كانت هدأتْ لأيام. لكنّ هذا

الرسوّ المؤقت أنار ذهن الرجل بفكرة سريعة؛ سينزل قاصدًا طبيبًا أوروبيًا يعرفه علّه يختصر عليه المشوار فيبرأ هنا ويعود دون حاجة للرحلة الطويلة إلى بلاده. ألم يكن رامبو يتفادى البلاد في صورة من الصور؟ البلاد التي استعارت صورة البرد، والنبذ، والذاكرة المثقلة بالمسالك الوعرة وهي تُفضي إلى تعب وفراق وهناء مغشوش، بعد أن كان يُسلّي نفسه بالصبر طوال الطريق على أمل بلوغ نهايات مختلفة.

ضاقتْ هرر بجامي منذ اللحظة التي رأته فيها ألماز رفقة رامبو. انكفأ يقضي معظم اليوم يخدم سيده الذي يتفاقم مرضه باضطراد، ويتجنّب الظهور في شوارع المدينة خشية ملاقاة ألماز. خطر له مرة أن يخرج يبحث عنها ويشرح كيف انزلق إلى ما رأتْ، لكنه عاد وصرف الفكرة تحت وطأة نظرتها الحارقة تلك التي ما فارقتْ مخيّلته. سأل عنها فلم يصل لجواب، فظلّ مضطربًا يراوح بين قلق عليها، ورهبة من لقائها.

لا يعرف كيف انتهتْ الأمور إلى ما آلتْ إليه. كيف جاء لغرض، وانصرف لآخر. كيف اكتشف أنه لم يعرف يومًا ما يريد. كل تلك المطاردة لحلم قديم، بدتْ دخيلة على نفسه، وكأنها لشخص آخر. كلّ ذلك الانتظار ذهب سدى رغم بلوغ المراد. لا يعرف هل خدع ألماز أم كان يخدع نفسه. ومن هو إذا كانت كلّ هذه المسافة تفصله عن روحه ليسعى وراء أحلام مغشوشة.

لكن هل يتحمّل هو كل ما جرى وحده، أم تُشاركه الفتاة

ذلك؟ ماذا لو أنها التفتتْ إليه في ذروة إقباله؟ ماذا لو استطاعتْ رؤيته مرة، حين كان لا يرى غيرها دائمًا؟ ماذا لو اختارته هو عوض هرر، المدينة التي جلبتْ المتاعب للجميع حين كشفتْ الغطاء فظهر كل واحد على صورته الصادقة؟ وهل الحبّ إلا غشاوة لذيذة؟

في أعماقه يعرف تمامًا كيف كانت أمانيه شديدة الوضوح قبل أن تتغبّش بأفعال ألماز، كيف كان يسير في طريق واحد يتبع محبوبته قبل أن تقوده هي إلى مفترق طرق، وتمنحه فرصة أن يختار. تمامًا كما فعلتْ. هل كان يُعاقبها هنا أيضًا أم يتبع خياره؟ سيظلّ يدور في هذه الحيرة كثيرًا.

لم تكن ألماز تُغادر الكنيسة إلا لحاجة ملحّة. تنزوي جانبًا حين يفد مصلّون، وتتجاهل محاولاتهم مدّ العون لها، حتى اعتاد الناس على وجودها على هامش وجودهم. هي بدورها كانت أكثر انطفاء من قدرتها على التجاوب معهم، على الالتفات صوبهم، حتى غدوا هامشًا يؤثث المكان ببعض الضجيج. هو كذلك لديها، ليس كنيسة ولا مسجدًا، كان مكانًا وحسب، يُعيد لها بعض الشعور القديم حين احتضن مجيئها الأول.

ما تزال على حالها، مسلوبة القدرة على فعل شيء، تُنقّل بصرها الزائغ في الأشياء من حولها دون أن تثبت على شيء. ما رأته سلبها الرغبة والطاقة فارتدّ كل شيء لداخلها ازدراءً ونفورًا. تشعر بروحها تطفو على المدينة دون أن تكون معنية بما يجري حولها. يُريحها هذا الشعور، وكأنه يوقف الزمن حتى تتحرّر مما علق بروحها طوال

ما مضى من عمر، وكأنه يُعفيها من التبعات قليلًا، تبعات ما فعلته، وتبعات ما لم تفعل. أليس غريبًا أن يدفع الواحد ثمن ما لم يقترفه؟

لكنّ تلك الراحة التي يهبها طفو روحها تجلب معها استبصارًا لا يكفّ عن الوخز. مع الوقت يزداد يقينها أنّ الوضوح كان يُحيط بها غير أنّها كانت الغارقة في التشويش. تُدرك الآن أنّها منكشفة على العالم. هذا الانكشاف الذي سعت ملء طاقتها أن تتفاداه بالركون إلى رامبو. وكأنّ العالم مصمم بالأساس على ألا نكون على تماسّ متجرّد معه، على أن نحمي أرواحنا العارية بالاختباء وراء حبّ حقيقي أو متوهّم. أن نسكن كهفاً داخل الكهف الأكبر. ليتها انتبهتْ قبل هذا الوقت، أنّ الحبّ طرْق لذيذ على جدار القلب، لكنه غالبًا ما ينتهي، ودون انتباه، بتداعي ذلك القلب.

غدتْ تكره كيف يُخرج الحبّ أسوأ مافي الواحد، رغم كلّ البدايات التي تشي بخلاف ذلك. لكنها لو أمعنتْ النظر أكثر لأدركتْ أنّ الحبّ لا يفعل ذلك حقيقة. حين يُحبّ الواحد يكشف روحه طبقة تلو أخرى، يُزيل عنها كل الدعائم، فتصبح أكثر هشاشة وضعفًا. الضعف أصدق حالات المرء وأقربها من حقيقته، لكنه في المقابل أكثرها حساسية. لذا يعلو صوت الألم مع أصغر هزّة. الحبّ يجعل الألم أكبر في وقت يكون الواحد قد اطمأنّ إلى تلاشيه إلى الأبد.

حين سمعتْ مرة فيما يُشبه الهمس أنّ الأوروبيّ يوشك على مغادرة هرر قبل أن تقتله قدمه المتعفنة، عادتْ عن طفوها واستعادتْ وجودها في الكنيسة، بل واقتربتْ من المتهامسين.

لم تحمل عدن لرامبو إلا نكسة أخرى. فقد أبان له طبيبها الأوروبي عن خطورة مرضه، وحثّه على التعجيل بالمغادرة إلى بلاده. تبدو البلاد هنا قدرًا لا فكاك منه. كل شيء يمضي بالرجل كي يصل شتاء، وهو الذي ما انفكّ يحاول تجنّب أن يعود في وقت يلائم الموت أكثر من أيّ شيء آخر.

حين تحرّكتْ السفينة، كان كعادته يُطالع الميناء. يُمنّي النفس بالعودة سريعًا في الاتجاه المقابل. وحده ربما على تلك السفينة كان ينظر خلفه، كان ينتمي لما فات أكثر من تطلّعه لما هو آت. يبدو غريبًا كيف يهجس رامبو بالفوات في كل مرة، وكأنه كهل أضاع عمره في الفرجة والانتظار، كيف يسكنه اللحاق، وكأنه بدأ حياته حين شارفتْ على الانتهاء.

حسم جامي أمره أخيرًا وخرج يبحث عن ألماز متجاهلًا أنين رامبو يطلب مساعدته في تفقّد البيت قبل الخروج للقافلة التي تنتظره عند الباب. كانت تلك اللحظة هي التي قابلتْ عزم الفتاة على الخروج من الكنيسة ما إن سمعتْ بتجهّز رامبو للمغادرة. لم يكن جامي يعرف على وجه الدقة ما سيقوله حين يلتقيها، ولم تكن هي تدري ماذا ستفعل حين ترى رامبو. لو توقّف الزمن عند هذه اللحظة لبان كيف يوغل الاثنان في المأساة، كيف يُمعنان في الذهاب بعيدًا حيث لا وصول، كيف ما يزالان في اللحظة القديمة ذاتها؛ حين ينظر جامي صوب ألماز، فيما هي تُطالع رامبو الذي بدوره ينشغل عنها بالالتفات صوب خادمه. وكما كل مرة، لم ينتبه

أحد كيف يغشّه النظر ويُفوّت عليه من ينتظره. لكنّ العاشق دومًا ما يلتفتُ بقلبه فيكون الارتطام مضاعفًا.

كانت تحثّ الخطى صوب البيت. لم تكن تملك أن تصفه بأكثر من ذلك. هل تقول بيت رامبو؟ أم بيتها؟ أم البيت الذي جمعهما. في هذه اللحظة لم يكن من الممكن أن تتجاوز شعورها المحايد تجاه المكان. هذا وحده قد يُريحها من حسم الأفكار التي تضطرب في رأسها.

حين لاح البيت انهار حيادها وانهال كلّ العمر الفائت. استعادتْ طعم كل الأوقات المالحة، وكأنها تعيشها الآن. حتى أنها تذكّرتْ دونما سبب الشطر الذي حفظته من أغنية الاشتياق التي ترنّم بها رامبو في حضرتها. علت وجهها ابتسامة هازئة وقد أدركتْ أنّ الأغنية التي جرتْ على لسانه مرة بقربها، غدتْ ابتهالًا لفرط أملها. في حين لم تكن إلا طريقته العادية في استمالة الأشياء البعيدة الفائتة. وهي لم تكن يومًا رجاء يُنتظر تحقّقه.

اضطرب جامي حين رأى ألماز مقبلة. خرج يقصدها لكنه مع هذا اكتشف كيف أنه لم يكن جاهزًا للقائها. لم يفلح في ارتداء ملامح تُخفي ارتباكه، وحين عجز في بلوغ كلام يبتدرها به ترك الأمر لها. ما إن حاذاها حتى توقّف، لكنها لم تفعل، ومضتْ دون حتى أن تلتفت له. لم يفق من تجاهلها إلا حين تجاوزته بالكامل. ظلّ ساهمًا في مكانه، مُطرِقًا رأسه وكأنه يتأكد من أثر خطوها. أعادته هذه اللحظة لوقفته نفسها في السهل، حين غادرته الفتاة بعد

أن أخبرته بقرارها الرحيل إلى هرر. يُدرك الآن أنّ مأساته ابتدأتْ ذلك الحين دون أن يعرف على وجه الدقة نهاية لها. ولهذا عزم وقتها أن يضع حدًّا لها.

وصل رامبو أخيرًا إلى بلاده. وصلها مرغمًا ومتذمّرًا. وصل قبل الأوان أو بعده، لا يهم، فقد وصل في غير وقته المنتظر. لذا وفي أشدّ لحظاته حلكة بمشفى الولادة في مرسيليا، كان يُطالع ساقه المبتورة وإلى جواره العكّاز الخشبي، ويصيح في أخته إيزابيل «**أودّ أن أذهب، وأرى، وأعيش، وأسافر**». لكنّ التخلّص من الساق المتعفّنة لم يكن كافيًا، إذ تمدّد المرض في الجسد المنهك وتمكّن منه؛ فدخل الرجل في هلاوس غذّتها الحمّى، تارة يهذي بآيات قرآنية، وأخرى يُنادي على جامي ولا مجيب.

كان رامبو ممدّدًا على فراشه في الطابق الأرضي، يئنّ ويُنادي على خادمه بنفاد صبر، قبل أن يصمت حين انفرج الباب لتظهر أمامه ألماز. مرّ وقت والاثنان يطالعان بعضهما دون أن يتكلما. بدا وكأنّ كل واحد منهما ينتظر الآخر ليقود الحديث في اتجاه مداواة الجراح أو نكئها. حين همّ رامبو بالحديث أخيرًا، كانت ألماز قد تجاوزته وسارتْ باتجاه الطابق العلوي دون أن تلتفت خلفها. الآن، ودون عزم سابق عرفتْ الفتاة ما أرادته بهذا القدوم. إنه التجاوز، العبور، ترك كل المرارة خلفها والمضيّ بعيدًا. بدا غريبًا أنّ ذلك لم يكن ليحدث إلا حين تقترب كما تفعل الآن.

كان رامبو يتبع ألماز بنظره، فيما هي تعتلي السلالم. كانت تلك

لحظة نادرة لم تنتبه لها الفتاة أو لعلها فعلتْ ليعظم في نفسها ما عزمت عليه.

«لعل رامبو انتبه في يومه الأخير هنا، إلى كل ما فات. كنت أشعر أنّ نظراته تخترق ظهري، بالرغم من أنّ ذلك كان آخر ما انتظرته، فقد توقفت عن انتظاره. ولكن ما فائدة الشيء إذا جاء في غير وقته؟ تمنيت لو أنّه لم يفعل. ولكن لم يعد لهذا أيضًا أيّ أهمية. لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤيته للمرة الأخيرة، فجئت. شعور ما بداخلي حدثني أنها ستكون المرة الأخيرة، وأنّ رامبو لن يطأ هذه الأرض مجددًا، لأيّ سبب كان. كان جسده يخبر بوضوح أنه سائر نحو النهاية، ولست من السوء بمكان لأقول إني فرحت لهذا، رغم أني كثيرًا ما تمنيته في قمة نوبات حنقي أو حزني. ولكني بينما أشعر أنه يموت، شعرت أنه مات عندي منذ زمن بعيد، وأنّ استمرار جسده في الحياة لن يعني لي شيئًا بعد الآن. نحن نقتل الأشخاص في قلوبنا وعقولنا مهما استمروا في العيش بعد ذلك، ولو أمام أعيننا. هذه ليست قوة مني ولكنه التعب ولا شك. لذلك كنت أتحرك ببرود حقيقي وهو يستعد للمضي نحو وجهته الأخيرة وما لحاقي به آنذاك سوى للتأكد من أني قفزت على كل تلك السنوات وهو في حياتي، مثل خندق من نار، قفزة طويلة ومرعبة ولكن هأنذي الآن، في الضفة الأخرى».

سرعان ما تبدّدتْ لحظة التفات رامبو لألماز ما إن وصل جامي وانخرط من فوره في تجهيز سيده للمغادرة.

الجلبة التي أثارها جامي بينما يحمل سيده صوب الباب أعادتْ الفتاة. بدا وكأنها تلحق بآخر ما سينقطع. لكنه وما إن بدا أنه رآها للمرة الأولى أغلقتْ الباب.

أحسبُ أني فرغت اليوم من سرد جحيمي
حقًّا كانت الجحيم؛ الجحيم القديمة
تلك التي فتح ابن الإنسان أبوابها

(٢١)

«غادر الموكب الذي يحمل رامبو، وخفت الضجيج أمام المنزل. عندما تلفّتت حولي، سألت نفسي عما أفعله هنا، في مكان لم يكن مكاني يومًا، ولا أحمل له في داخلي سوى الحقد، مزيد من الحقد الذي يتصاعد وأنا أتأمل الجدران والمساند والسلال الدائرية الملونة والكرسي والطاولة. انقضت هذه المرحلة إلى الأبد وعليّ اللحاق بقافلة الحياة من جديد والذهاب إلى وجهة أخرى. سوف تندمل الجراح مع الوقت، وتلتئم الكسور. هذا ما آمله على أيّ حال. كل شيء يولد صغيرًا ثم يكبر، إلا الحزن، يمشي في اتجاه معاكس، هذا درس الحياة الأبدي حيث لم تستثنِ أحدًا لتعلمه إياه.

حين استقمتُ لأغادر، في تلك اللحظة بالضبط خطر ببالي أمر تملّكني تمامًا. هذه الرغبة التي استبدّتْ بي هي تقمّص رامبو، كأني أريد أن أصبح هو. لا أعرف هل هو اشتياق أم حقد، لكني أرجّح أني أفعل ذلك نكالة به، فقد قاوم بشراسة وإصرار كل محاولاتي لأكون قربه، وهأنذي أنتقم منه، ليس بالاقتراب منه فحسب، بل

بتقمصه والدخول فيه. هل ثمة قرب أكثر من هذا، أنا أنصهر به تمامًا، آخذ ضحكته، طريقته في التأمل، سأمه، اندفاعه، وحدته، أجلس على كرسيه أمام منضدته، أكتب بأقلامه، على أوراقه. وتمامًا كما فعل، سأرد له الطعنة وأكتب الكثير دون أن أراه. سأمرّ عبره دون أن يحضر بحرف واحد. ماذا تبقى؟».

تبّقى الكثير مما فات على ألماز!

ستشرع الفتاة في الكتابة إذن! ستشرع في شيء لا يُشبهها. ستخطّ بالأمهرية بوحها الطويل الذي أرادتْ أن يخلو تمامًا من رامبو. ستمرّ أيام كثيرة، وهي تستبق الكتابة بطقوسه التي غدت طقوسها. ستغمس القلم في الدواة وتكتب بيد، فيما الأخرى تجوس في رأسها. ستتخيّل رامبو خلفها يلعب لعبة أثيرة بأن يخمّن لحظة غمس القلم في الدواة. وستتركه فرحاً بربحه الصغير لتواصل الكتابة. وستبتسم هازئة حين يخسر كلّ رهان في أن تنظر إليه. كلّ ذلك كان يُغذّي دأبها على الاستمرار فيما بدأته دون كلل.

لكنها وعلى خلاف مقصدها، لم تكتب إلا عن الرجل من حيث أرادت تجاهله. ثم إنها انتبهت، لكن متاخراً جداً، أنها لا تملك عزيزًا تراسله، وستخلو الرسائل من التصدير الذي تمنّتْ لو تبدأ به خطاباتها: عزيزي أو عزيزتي. ستكون قد كتبتْ الكثير قبل أن تُفيق على العبث الذي تفعله. تمامًا كما حصل في حياتها، لم تكن الرسائل إلا دورة جديدة من السير الطويل دون وصول.

ستنتبه ألماز متأخراً كذلك، أنها غدتْ تُحاكي العجوز بائعة

القهوة بأن تجلب الفناجين وترصّها قرب بعضها قبل أن تملأها عن آخرها في محاولة يائسة لتبديد وحدتها.

وحين سيغمض رامبو عينيه للمرة الأخيرة، في تمام العاشرة ذات صباح بارد من نوفمبر/ تشرين ثانٍ عام ١٨٩١م، سيكون قد أتمّ لتوّه عامه السابع والثلاثين، وليطوي صفحة ترحاله الدائم دون أن تنتهي الآمال. حينها سيكون جامي هائمًا على وجهه بحيث يتعذّر الوصول إليه لينال نصيبه من تركة سيده. وسيكون مرّ وقت طويل على توقف ألماز فجأة عن الالتفات خلفها، فكفّت عن الكتابة، وتركتْ كل شيء على حاله؛ القلم والدواة وفناجين القهوة المملوءة عن آخرها، وقامت من مكانها بهدوء، وبخطى بطيئة لكن شديدة العزم، اتجهتْ صوب الباب، وغادرتْ البيت والمدينة بأسرها إلى وجهة غير معلومة هي الأخرى.

وحدها هرر بقيتْ على حالها، تُنادي على الحالمين وتعدهم وتُمنيهم، دون أن تنتبه الأفواج السائرة إلى حتفها، كيف يبدو الأمل أحيانًا حبلًا يقود إلى الهاوية، فيما نظنه المنقذ منها. وكيف كان سيبدو كل شيء مختلفًا لو استطعنا أن نخرج من أنفسنا للنظر إليها مجردين من ذلك الأمل. بقدر ما يتعلّق الأمل بالمستقبل؛ فإننا لا نراه على تمامه إلا حين يُصبح ماضيًا.

تمّت

شكر

أشعر بامتنان كبير تجاه الصديقين: أمير صديق، وعائشة مختار، على منح الرواية الكثير من الوقت والجهد.

كما أشكر جهد الأصدقاء: بثينة العيسى، محمد الشبراوي، ياسين أحمد، إيمان العزايزة، أحمد جلاجل.

وشكر خاص للصديقة وئام غداس على تحرير النص، وللصديق يوسف العبدالله على تصميم غلاف السلال الحبشية.

مكتبة | 821
سُر مَن قرأ